إبراهيم المصري

المرأة في حياة العظماء

الكتاب: المرأة في حياة العظماء

الكاتب: إبراهيم المصري

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المصري، إبراهيم

المرأة في حياة العظماء/ إبراهيم المصري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٧٦ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٨٨٤ / ٢٠٢٠

المرأة في حياة العظماء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كلمة

المرأة قوة، والعبقري قوة، والصراع بين هاتين القوتين في دنيا العاطفة والحب هو الذي يخلق في الغالب روائع الفكر الخالدة.

وفي هذا الكتاب صور مختارة لطائفة من العظماء عاشوا هذا الصراع، فكانوا في حبهم وعذابهم، أو في زهدهم وعفتهم، أو في قسوتهم وكبريائهم، رمز البطولة وعنوان التضحية في سبيل الفكر والأدب والفن.

فمن أضوائهم الساطعة ذات التوهج الأبدي، يستطيع شبابنا الطامح أن يقبس نور المعرفة، ونور العاطفة، ونور الحياة.

إبراهيم المصري

الفصل الأول

القوة والمحبة

"استولت عليه وتمكنت منه، فكبر عليه أن ينكر عقله وينكر إرادته ويهزم أمامه طيفها، فكان يعمد إلى سكين يحز بها أصابعه؛ كي يقهر ضعفه ويفهر حواسه، ويروض نفسه على الصبر والتجلد واحتمال الألم".

المؤرخ الدكتور كابانيس

المرأة في حياة نيتشه الشاعر الفيلسوف الألماني

ليس بين كبار المفكرين والشعراء من كان أشد جرأة وكبرياء من الفيلسوف الشاعر الألماني فردريك نيتشه، فقد حاول هذا الرجل أن يهدم الأخلاق والآداب المستمدة من نزعة الرحمة، وأن يبشر في حماسة وشبه جنون بعقيدة القوة، وأن يؤكد أن القوة المعنوية والحسية هي رأس الفضائل، وأن المجتمع الأرستقراطي القائم على تمجيد هذه القوة هو خير مجتمع يمكن أن تصدر عنه أفضل حضارة.

ومع ذلك فالحب أذل هذا الرجل وأخضعه لسلطانه، وأشعره أن العواطف شيء، والأفكار المجردة شيء آخر. وأن الإنسان قد يكون عبقريًا ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يكون سعيدًا في هذه الحياة الدنيا.

كان نيتشه مخلوقًا حساسًا إلى أبعد حد، غزير العاطفة، قوي

المخيلة، واسع أفق التصور، ولوعًا بالعزلة، ميالًا إلى دراسة الحياة وفهمها عن طريق خيال الشاعر وعقل الفيلسوف، أكثر مما كان ميالًا إلى دراستها عن طريق ملاحظة الحقائق اليومية الحية الماثلة في حوادث الأيام وأخلاق الناس.

وكان يعتقد أن المرأة إنسان ثانوي، وأنه من الخير للمفكر أو الفنان ألا يصل حياته بحياتها، وأن يعرف كيف يأمن شرها، ويتقي نزواتها، ويتخذ منها عند الضرورة أداة لبقاء النوع فحسب. ومن أشهر ما قاله عنها: "المرأة راحة الجندي بعد المعركة"، أي جزاؤه ومتعته لا غير. وقد فات نيتشه أن المرأة معركة تضاف إلى معركة، وأن هذه المعركة التي تنشب بين الرجل والمرأة قد تكون أقسى من معركة الحياة الكبرى بل قد تكون هي معركة الحياة الكبرى نفسها.

وهذه المعركة هي التي استعر ضرامها في قلب نيتشه، وهي التي فاجأته وهو شارد محير مخبول، فاضطر أن يخوضها على الرغم منه.

أحب فتاة عذراء حبًا عاصفًا مبرحًا، نبع من عقله، واستقر في وجدانه، وألهب عواطفه، وعذبه شر عذاب.

التقى بها في إيطاليا ذات صباح، وكانت تدعى (لوسالوميه)، فما إن رآها حتى راعه منها فيض شبابها، وسحر جمالها، وتوقد ذهنها، واكتمال ثقافتها، واقتران الأنوثة فيها بجاذبية الفكر الراجح المتزن العميق.

أعجب بها الإعجاب كله، وأحس وهو ذاهل مبهوت أن تأثيرها

أقوى في كيانه من قوة عبقريته نفسها، فمضى إلى داره محتل الذهن بها، مستغرقًا في التفكير فيها، باذلًا قصاراه لإقصاء طيفها عن خياله، ولكن على غير جدوى.

كان يراها في نفسه، وفي وحيه، وفي شعره، وفي شتى ألوان الجمال الماثلة في الطبيعة والتي تقع عليها عيناه، كان يسمع في الوحدة رنين صوتها، ويخيل إليه أن فراغ حجرته مليء بها، وينصت إلى حفيف الأشجار فيجفل ويختلج ويذكر حفيف ثوبها.

واستولت عليه وتمكنت منه، فكبر عليه أن ينكر عقله، وينكر إرادته، وينهزم أمام طيفها، فكان كما يؤكد المؤرخ الدكتور كابانيس: يعمد إلى سكين يحز بها أصابعه؛ كي يقهر ضعفه ويقهر حواسه، ويروض نفسه على الصبر والتجلد واحتمال الألم".

وكان مصابًا بصداع مزمن، تخلف فيه من وراثة ملوثة، فكان إذ ينتابه هذا الصداع يعجز عن الكتابة. فيسلم ذهنه لطيف الفتاة، ويظل بين وطأة الصداع وملازمة الطيف، متخبطًا في عواطفه، ممعنًا في هواجسه، لا يعرف الراحة، ولا يقوى على النسيان، ولا يستطيع أن يجد الخلاص الكامل في السكين التي يحز بها أصابعه!

وكانت (لوسالوميه) مأخوذة به، مسحورة بروعة ذكائه، وعمق تفكيره، وغزارة ثقافته. ولكنها كانت في الوقت نفسه مفتونة بعبقرية خصمه وعدوه اللدود الموسيقي الكبير ريتشارد فاجنر.

وكان فاجنر رجل ألمانيا الأول في ذلك العهد، وكان نيتشه قد تأثر به ثم انقلب عليه، وراح يهاجم فنه الموسيقي، وينعته بالضعف والفوضى، وينعي عليه نزعته الصارخة إلى المبالغة والطنين الأجوف، وعبوديته المنكرة للعقائد الدينية الرجعية، ويصفه بأنه فن ضبابي خانق كثيف، لا شمس فيه ولا هواء ولا قوة ولا فرح.

وكانت لوسالوميه موزعة الفكر والقلب بين فلسفة نيتشه وفن ريتشارد فاجنر، كانت تتأرجح بين الرجلين، وتضطرب بين العقليتين، وتحار في أيهما تفضل: رجل الفكر والقوة، أم رجل الفن والجمال؟!

وكانت تخلبها من نيتشه جرأته وكبرياؤه، وتفتنها من فاجنر روائع أخيلته، وعظمة أساطيره، وجلجلة ألحانه. فلبثت حائرة مترددة، تستطلع طلع نفسها، وتحرص جاهدة على استقلال فكرها، وتأبى أن تخضع لأحد من الرجلين.

ولم يكن نيتشه على علم بالصراع الذي يدور في نفس الفتاة، فاعتقد أنها سليمة العقل من كل تأثير، وأنها ما تزال عجينة رخوة في وسعه أن يصوغ منها الدمية التي يشتهي، فأمعن في حبها، وظل يلاحقها، مستعطفًا ملتمسًا متوسلًا، كالفتى الغر في أول عهد الشباب.

ولما كان مولعًا بحياة الإغريق، يعبد القوة والطلاقة والمرح، مقترنة بالفكر المجنح اللامع الوثاب. فقد خيل إليه أن (لوسالوميه) تمثل الروح الإغريقية الأصيلة، فطفق يداعب الآمال ويبني القصور، ويحلم ببعث هذه الروح في زواج مثالي أبدي يصل بين حظه وحظ الفتاة.

ونما الخيال في نفسه وترعرع، واتقدت العاطفة في قلبه واضطرمت، فكان يرتجف لمقدم الفتاة وينخلع، ويحزن إذا غضبت، ويضحك إذا ابتسمت، ويعض شفتيه حتى يدميهما إذا تبرمت به، أو أعرضت عنه، أو شعر أنه يوشك أن يفتضح وتتفجر من عينيه الدموع.

وأحس -وهو رسول الإرادة والتفوق والقوة- أنه لا يتراجع ويستضعف حيال القوة، بل أمام رمز الضعف.

أحس وهو ثائر مستنكر، أنه واهن العزم مسلوب الحول، طائر اللب تجاه المرأة، خجول حيي. يرتبك لأقل شيء، ويجزع من أي شيء، وتهوله الهفوة البسيطة تفلت منه في لحظة طيش، فتهدم في زعمه قصر أحلامه، وتقوض صرح مستقبله كله.

ولم يكن واثقًا من حب الفتاة له، وخشي إن هو عرض عليها الزواج أن تقابل عرضه بالرفض. فكان لا يعرف كيف يكاشفها، ولا يعرف كيف يستدرجها، ولا يعرف كيف يميط اللثام عن حقيقة نفسها. وهكذا اصطدم لأول مرة في حياته بسر المرأة الأبدي، فذعر واختبل، وبرح به العذاب.

والعجيب أن حبه أفقده في تلك الفترة وعيه، وجرده من سلطانه على عقله، ورده إلى طور الطفولة. فكان إذ يخلو إلى نفسه يعكف على رسم عدة صور تخطيطية للوسالوميه، ويكتب على أوراقه الحرف الأول من اسمها والحرف الأول من اسمه متشابكين متعانقين، ويطلق اسمها على أحب الزهور إليه، وينظم الشعر متغزلًا فيها، ويسخط عليها تارة، ويهلل للوحي الهابط منها أخرى، وهو ذاهل عما يفعل، سابح في نشوة

دونها نشوة المجد الأدبي الخالد الذي يحلم به.

وكانت لوسالوميه تستشعر بغريزتها النسوية المشرقة أن الفيلسوف يحبها، ولكنها كانت قد بدأت تضطرب وتنكمش وتخاف، كانت تخاف على نفسها عثرة من من عثرات الإعجاب، أو كبوة من كبوات العاطفة، أو سقطة من سقطات الجسد. كانت تحس أن الحب المتأجج في صدر الفيلسوف يهب عليها كالنار، ويكاد يحرقها. فكانت تفكر، وكانت تقاوم، وكانت تعلم علم اليقين أنها لو تزوجت نيتشه فيجب أن تودع الشباب وداع الأبد، ويجب أن تحب الفكر والعزلة، والتأمل والصمت، والزهد والتجرد، أكثر ألف مرة مما يجب أن تحب الفيلسوف نفسه وتحب الحياة. ومع ذلك فقد كانت تتمنى لو أن في مقدوره أن يفهمها. لو أن في وسعه أن يتغير ويتحول ويبدل جوهر فلسفته من أجل الحقيقة ومن أجلها.

وكانت في غضون ذلك قد أنعمت النظر في كتبه، وتعمقت في فلسفته، وأنصتت إلى رنين روحه. فهالها دوي صوته الذي يرتفع فوق كل شيء، وضوء عقله الذي يمزق كل شيء، وجبروت إرادته الذي يتحدى كل شيء، وقدرته الذهنية الشيطانية على تحطيم كل ما آمن ويؤمن به البشر، من فضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية والمساواة والإخاء.

هالها هذا كله، فازدادت تراجعًا، وازدادت تحفظًا، وانطوت على نفسها، وأصرت على أن تلزم جانب الإعراض والصمت وعدم الاكتراث.

وروع نيتشه إعراضها وخشي أن يفقدها، فحزم أمره ذات صباح،

وذهب إلى صديق يدعى (بول ري) وكاشفه بحبه، ورجاه في حرارة وحماسة أن يطلب له يد الآنسة لوسالوميه.

وكان نيتشه –لفرط كبريائه واعتداده بنفسه– يعتقد اعتقادًا راسخًا أن الفتاة ستخر صعقة أمام رغبته، وأنها ستهرع إليه من فورها شاكرة له نعمته، مترامية عند قدميه كأمة رفعها أمير إلى مرتبة الأسياد.

ولكن الفتاة رفضت رفضًا باتًا قاطعًا صريحًا، رفضت بدون إبداء أي سبب، رفضت الزواج كما رفضت أن تقابل الفيلسوف. عندئذ تاه عقل نيتشه وجن جنونه، كبر عليه أن يسعى فيرد، وأن يتكرم فيذل، وأن يتفضل فيجحد فضله، وتمتهن كبرياؤه، فصغرت نفسه في عينيه، وهان الفكر في نظره، وخالجه شعور مر بأن عقله الفذ لا قيمة له، وأن ليس في وسع عبقريته الخارقة أن تجعله سعيدًا.

وحل به عذاب لم يحل قط بإنسان، فاستجمع قوته وعزم أن يقطع كل صلة له بالفتاة، ولكن حبه كان أقوى من عزمه، وأمله أقوى من سخطه، وفضوله أقوى من عقله، فأراد أن يعرف على وجه التحقيق لماذا رفضته الفتاة، وهل هي تحب رجلًا آخر. فكبح جماح كبريائه، وتغلب جاهدًا على لوعة ذله، وكتب إليها يقول: "ليس من حقي أن أعترض مشيئتك، إن إرادتك مقدسة عندي، بل أنا أحب أن تكون لك إرادة؛ لكي تكوني على الدوام قوية فيزداد اعجابي بك، على أن من حقي أن أسألك لماذا رفضتني زوجًا لك؟

لقد كان يخيل إلي أن فكرك قد استجاب إلى فكري، وأن قلبك قد

خفق لي؛ ولهذا أحببتك. فهل كنت واهمًا؟ هل كنت مغرورًا؟ هل ختمت كبريائي على بصري فأعمتني عن رؤية الواقع الذي يذهلني اليوم ويكاد يذهب بلبي؟ إني أحبك، فصارحيني بدخيلة نفسك. ومهما كان حكمك قاسيًا وفظيعًا، فسأعرف كيف أحتمله؛ لأني أعتقد أن كل ما لا يقتلني يقويني!".

وبعد بضعة أيام، تلقى نيتشه من الفتاة الجواب التالي: "لقد أعجبت بك، ومازج إعجابي شيء كثير من العطف عليك، وكدت أخضع لك وأستسلم، ولكني استيقظت –والحمد لله– قبل فوات الوقت. أتعلم لماذا رفضت الزواج منك؟ لأن عقيدة القوة التي تدعو إليها تقلقني وتخيفني، أنا امرأة وكل امرأة تحب القوة وتنشدها، والقوة في ذاتها شيء عظيم، ولكنها شيء ناقص. القوة تخلق الفكر وتخلق الحضارة وتنظم المجتمع، ولكن الحرص على الفكر وعلى الحضارة وعلى المجتمع، لا يمكن أن يتم في عرفي بدون محبة. فالمثل الأعلى في نظري هو اقتران القوة بالمحبة، أي اقتران فضائل الإرادة والعمل والسيطرة والاستعلاء التي يمتاز بها الرجل المتفوق، بفضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية الكامنة في نفس المرأة المتفوقة. ومن مجموع هذه الفضائل تتكون الحقيقة الإنسانية الكبرى!

ولقد كنت أعتقد عندما عرفتك أنك إذا كنت تمثل القوة فأنا أمثل الحب، وأن في وسعي بفضائل المحبة الكامنة في نفسي أن أكمل النقص الملحوظ في قوتك، بحيث نحقق معًا تلك الوحدة الإنسانية المبتغاة! ولكني أدركت أنك تضع القوة فوق كل شيء، وتؤمن بأن القوة

وحدها قادرة على كل شيء؛ ولهذا رفضت الزواج منك، وأصبحت أثق أنه من المستحيل علينا أن نتفاهم يومًا ونتحابّ. فامضِ في طريقك، فأنا لست لك، وأنت لست لي ولا لغيري، بل للفكر المجرد الذي تعتقد أن في مقدورك أن تفرضه عنوة واقتدارًا على حقائق الحياة!".

ولم يكن نيتشه ليتوقع أبدًا من الفتاة مثل هذا الخطاب الجريء، ولم يكن ليتصور أنها يمكن أن تقف منه موقف المعلم. فاستشاط غضبًا وسخطًا، وأبت عليه كرامته أن يعود فيتوسل ويستجدي. ولكن اعتراض الفتاة على تعاليمه أثار فيه حنق المفكر، واختلط هذا الحنق في نفسه بعاطفة حبه التي ألهبها الإعراض والصد، وبرغبته الخفية في تجربة حظه مرة أخرى عساه أن يوفق إلى استمالة الفتاة من طريق الفكر، والاحتفاظ بصداقتها المعنوية، والتطور يومًا بهذه الصداقة إلى حب. فكتب إليها مرة ثانية؛ لا ليبثها غرامه، بل ليشرح لها فلسفته. ويحاول أن يقنعها بأن المحبة ضعف، وأنها هزيمة، وأنها تجرد القوة من خصائصها الخالقة، ولا تحرص على الفضائل والخيرات التي تصدر عنها، بل على النقيض تعصف بها، وتدمرها تدميرًا.

وأمعن في تمجيد رسالة القوة ما شاء له إيمانه، وما شاءت له رغبته في التأثير في الفتاة وإقناعها، ثم بعث إليها بالرسالة ولبث ينتظر.

انتظر أيامًا، أيامًا طويلة، ولكنه لم يظفر من الفتاة بأي رد. فثار ثائره عليها، وفكر في طردها من حياته والتخلص منها، ثم عز عليه أن يفقدها، فأراد أن يذهب إليها، غير أنه أشفق في النهاية على البقية الباقية

من كبريائه وكرامته، وآثر أن يحتجب وينتظر.

ولكن لوسالوميه كانت قد تحولت شيئًا فشيئًا إلى الطريق الآخر. كانت قد اتجهت بوجدانها وعقلها صوب الموسيقي الكبير ريتشارد فاجنر، الذي خيل إليها أنه هو المجدد الأعظم، وهو العبقري الفذ الذي تقترن في فنه الساحر دعوة القوة بدعوة المحبة، والذي يعبر عن مثلها الأعلى في الإنسان الكامل أتم وأصدق تعبير.

وكان نيتشه ما يفتأ يهاجم فاجنر، ويحمل على فنه حملات شعواء، فاستنكرت لوسالوميه هذه الحملات الجائرة، ونسبتها إلى الحسد والغيرة، فزاد نفورها من نيتشه، وتضاعف إعجابها وتعلقها بالموسيقي النابغة.

وكان فاجنر في أوج مجده إذ ذاك، وكانت أوبراته تمثل على مسرح مدينة بايروت، فحدث أن دعيت شقيقة لوسالوميه إلى تلك المدينة لمشاهدة مسرحية غنائية جديدة لفاجنر هي (برسيفال).

ورافقت لوسالوميه شقيقتها وشاهدت المسرحية، ولأول مرة في حياتها شاهدت فكرًا خارقًا، وفنًا رائعًا، ونصرًا ساحقًا، ومجدًا لفاجنر منقطع النظير. فاضطرمت عواطفها، وجاشت أنوثتها، وخضعت بجمع كيانها لسلطان الفن وسحر الموسيقى.

خاطبت تلك الموسيقى الصاخبة الرقيقة، الهادرة الوديعة، العاصفة الحالمة، الدنيوية السماوية، نزعة القوة والمحبة الكامنة في قلب الفتاة فأيقظتها، واستطاعت أن تحدث في نفسها ذلك الأثر العميق الذي لم

يستطع أن يحدثه شعر نيتشه ولا فلسفته.

وأخذ الإعجاب من الفتاة مأخذه، فطلبت مقابلة ريتشارد فأذن لها. وما إن دخلت عليه وأبصرته أمامها مخلوقًا من لحم ودم، يبتسم تواضعًا، ويختلج عبقرية، ويتألق جمالًا، حتى انتشت وأصابها من فرط النشوة شبه خبال، فجثت على الأرض، وحدقت إلى فاجنر تحديق العابد، ثم انحنت في خشوع وقبلت يده، قبلت يد عدو نيتشه اللدود.

ومنذ ذلك اليوم، بل منذ تلك اللحظة، أصبحت من عشاق فاجنر ودعاته ومريديه، وعاهدت نفسها وأصدقاءها على ألا تكتب لنيتشه أو تتصل به أو تراه أبدًا.

ولما بلغ نيتشه النبأ، انخلع قلبه وغلى الدم في عروقه، وكاد يغشى عليه، ولكنه جاهد ضعفه، وتمالك نفسه، وغمغم في هدوء كلمته المشهورة معرضًا بفاجنر: "لقد اجتاز طائر سماء غرامي فاختطف المخلوق الذي أحببته، ولكن هذا الطائر لم يكن نسرًا، وفي هذا عزائي!".

ثم ترك صديقه (بول ري) الذي نقل إليه الخبر، وصعد إلى مخدعه، وهناك أوصد عليه الباب، وتناول السكين، وشرع يحز بها أصابعه!.

الفصل الثاني
بين مخالب عبقري

"كانت تقول في رسائلها إليه: أود أن أحقق لك السعادة ولو تعارضت مع سعادتي، لقد آثرتك على نفسي منذ عرفتك؛ لأني لا أحب إلا الخير الذي أستطيع أن أفعله، ولقد أدركت أن في وسعك فعل الخير أكثر مني!".

المرأة في حياة ماترلنك الكاتب الروائي البلجيكي

لكل عبقري مزاجه الخاص، ولكن هناك ظاهرة رئيسية يشترك فيها معظم العباقرة ويعرفون بها وهي: الأنانية!. وأنا سأحدثك أيها القاريء عن مأساة فكرية ووجدانية أحدثتها أنانية عبقري، سأحدثك عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائي البلجيكي (موريس ماترلنك)، وعن حياته الخاصة، وغرامه العظيم بالمرأة العظيمة التي استوحاها فكره وفنه، مدام (جورجيت أوبلان). فلقد تحابا عشرين سنة. ولكنهما اختلفا في النهاية، فغدر الرجل بالمرأة، وعادت المرأة إلى سابق حياتها، ثم هفت نفسها إلى غرامها الكبير، فرجعت بذهنها إلى الماضي، وقصت علينا ذكرياتها في كتاب أثار عند صدوره ضجة عظيمة في الأوساط الأدبية في أوروبا كلها.

ونحن لا نقصد بتحليل هذا الكتاب أن نسرد حكاية غرامية طريفة،

بل أن نحاول النفاذ إلى جوهر شخصية عبقري، وأن نفهم ما قيمة الحب في نظره، وهل في وسعه أن يجمع بين حب المرأة وحب العمل الأدبي، أو أن يضحي من أجل المرأة ولو بجزء من الجهد الذي يبذله في سبيل إبداع العمل الأدبي؟

كما أننا سنجتهد في دراسة شخصية امرأة ممتازة، لندرك الأسباب والدوافع التي حملتها على حب العبقري، وما إذا كانت قد أحبته حقًا، وما إذا كان العبقري يحفل بالحب والعواطف ولو كان أديبًا وقف حياته على رسم العواطف والتغني بالحب؟

موريس ماترلنك، شاعر رمزي، وكاتب صوفي، شعره مقطوعات رقيقة عذبة، وحكايات ساذجة بريئة، ترمز إلى البطولة والتضحية، ومختلف القوى العاطفية الخالدة التي يلوذ بها الإنسان للتفوق على ضعفه، والتطلع إلى مثل أعلى.

وهو ناثر بليغ، يستهويه أدق وأخفى ما يكمن في ظلمات النفس ومجاهل الحياة من أسرار، فيقبل عليها، ويتأمل فيها، وينظر إليها نظرة فنية وفلسفية، لا من حيث علاقتها بأبطال قصصه فحسب، بل من حيث علاقتها بالأبد واتصالها بجوهر الطبيعة الذي لا يتبدل.

وكانت جورجيت لوبلان قد سمعت باسمه، وطالعت مؤلفاته الأولى، وأعجبت بفنه القائم على مزج الحقيقة بالحلم، والشعر بالفلسفة، فأحبته. أحبته دون أن تراه، أحبت فيه الشاعر الذي استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها، عن خلجات صباها ومطامح نفسها، عن عنصر الفن والجمال

الذي أرادت أن تجعل منه هي أيضًا مادة فكرها وحياتها.

وكانت إذ ذاك في نحو العشرين من عمرها، على جمال رائع، مغرمة بالأزياء الفنية الغريبة، مفتونة بالعواطف الإنسانية الكبيرة، خيالية النظرة إلى الحياة، تلتمس الشعر في كل شيء، وتؤثر الشعر على كل شيء. كانت نزاعة إلى الحرية، تواقة إلى المجد، شغوفًا بتمثيل أدوار بطلات الحب والألم والثأر والتضحية على مسرح الواقع، ملتهبة الأعصاب، فوارة المزاج، على حظ كبير من النبوغ في الكتابة والأدب، مثقفة، ذكية، خليعة في تحفظ، طائشة في اعتدال، تهوى الموسيقى والتمثيل، وتعمل جاهدة لتصبح ذات يوم مغنية وممثلة يشار إليها بالبنان.

هذه المخلوقة العاصفة رأت في فن ماترلنك من الهدوء والرصانة، والتأمل والحلم، ما استهواها وأشعرها بأن لا سلام إلا هنا، ولا استقرار ولا اتزان ولا اكتمال إلا في قرب هذا الرجل الفذ العجيب.

وقدمها إليه ذات يوم بعض الأصدقاء، فما إن أبصرها حتى أحس هو الآخر بأن ما ينقصه ممثل فيها. وأجالت فيه طرفها الفاحص، فشاهدت رجلًا مديد القامة، صلب العود، مفتول العضل، صامتًا وخجولًا، له نظرة محجبة بعيدة، وقسمات جافة، ويدان غليظتان كأيدي الفلاحين.

راعها منه شبابه، وقارنت بين رقة فنه وقوة عضلاته، فأعجبها هذا التناقض، وأثار فيها حاسة الفضول وأخضعها.

وتبودلت بينهما الزيارات، وذهل ماترلنك لهبوط هذه المرأة الفجائي به.

هذه المرأة الولوع بكل ما هو عظيم وجميل، المرأة التي تقصد المتاحف، وتقف برسوم أكابر المصورين، ثم تفصل أثوابها على مثالها، ثم تخطر بها في شوارع باريس كأنها أميرة من أميرات القرون الوسطى، عليها وشائح كوشائح الملائكة التي رسمها (جوزولي) و(فرا أنجليكو) و(بورن جونس) وأضرابهم.

ورأى فيها ماترلنك المثل الحي لما يجب أن تكون عليه عروس الشعر الملهمة المبتغاة، فاطمأن إليها، وتوثقت بينهما أواصر الحب، وبدأت حياتهما الجديدة ملحة نادرة من ملح التفاهم، بل معجزة خارقة من معجزات الصفاء والسلام.

وكانت جورجيت تحنو على موريس حنو أم على ولدها، كانت تسهر على راحته، تكلؤه بعين عنايتها، وتسهل له سبل العمل، وتتعهد شؤون بيته، وتخلق له الجو الذي لا يستطيع بدونه أن يفكر أو يكتب، جو الصمت، الصمت الشامل الوارف العميق، الصمت النابض بالحركة، الزاخر بالقوة، المثقل بالفكر، الصمت الذي كانت تفهم جورجيت أسراره وكنوزه، وتحدث الشاعر عنه في رسائلها، وتسوقه إلى بحثه وتحليله وتمزيق الحجب عن غوامضه.

وكان عقلها النابه يمطر الكاتب أغرب الأفكار، وأدق الملاحظات، وأعجب الحقائق، في غير ما كلفة أو إعنات. أما هو فقد كان مأخوذًا بها، لا يعرف كيف يخاطبها، أو يتودد إليها تودد الذكر للأنثى، أو يعبر لها عما تكنه نفسه في أسلوب ملتهب كمزاحها.

كان يقف بها وقفة المتفرج المشدوه، يستمرئ أحاديثها، ويعب

في فيضها، وهو مغرق في صمته، راسخ في هدوئه، منطوٍ على نفسه، يخشى الكلام لئلا يتبدد فكره، ويخشى الإعراب عن حبه لئلا ينمو الحب، ويصبح شغله الشاغل، فيصرفه عن واجب التفكير والعمل والإنتاج! كان حائرًا بين حبه وعبقريته، بين غرامه ورسالته، بين قلبه النزّاع إلى الفوضى، وعقله التوّاق إلى النظام! ولكنه في رسائله إلى جورجيت كان يفرج عن نفسه فيقول:

"بي خوف من رؤيتك مرة ثانية، على أني لا أتمنى غير هذا. إني لأخاف على حبنا أن يموت من جماله نفسه، كل ما وقع لنا يبدو لي جديدًا وغير منتظر، لم أتخيله لا في الحلم ولا في الحياة!".

وكانت تقول هي في رسائلها: "أود أن أحقق لك السعادة ولو تعارضت مع سعادتي. لقد آثرتك على نفسي منذ عرفتك؛ لأني لا أحب إلا الخير الذي أستطيع أن أفعله. ولقد أدركت أن في وسعك فعل الخير أكثر مني! إن حبنا نادر وعجيب، إنه لا يمكن أن يكون زهرة صغيرة غرستها شهوتان، إنه زهرة تنبعث من الأرض وتتجه نحو الشمس، إنه نفسه أرض وشمس وسماء!".

وكان يجيبها قائلًا:

"إني أحبك في جنون، أنت من أوفر الكائنات حياة، أنت مخلوق من حياة ونور، كل ما تمسه يدك الناصعة يصبح نورًا. ليس في وسعي أبدًا أن أردد في قوة كافية كل ما علمتني إياه!".

ولكن الغريب أن ماترلنك كان يكتب هذه العبارات ولا يتفوه أبدًا بمثلها، كان يبدي من الحب في رسائله أضعاف ما يبديه في حديثه ومظهره، كان يذكر الحب وهو بعيد عن المرأة خشية أن تطمع فيه وتستبد به وتتسلط عليه، وتحل عبادتها في كيانه محل عبادة الأدب والفن!

وهكذا اصطدمت جورجيت بشخصية العبقري الخفية، وأدركت بسليقتها أنه أناني، وأن قوته تنحدر من أنانيته، وأن هذه القوة التي أحبته من أجلها هي التي قد تهدد في النهاية حبها وتقتله.

أحست بالرجل على حقيقته، رأته انسانًا متبرمًا متجهمًا مستوحشًا نفورًا يتذرع بالصمت؛ لا لينمي في نفسه إحساسه وفكره فحسب، بل ليقصي عنه فضول الآخرين، ليطرد عنه أفراح الناس وأتراحهم فلا تتسرب إليه شواغلهم، ولا تعكر عليه في هدأة التأمل مجرى العمل الأدبي العظيم!

العمل الأدبي! أجل، ذلك هو دينه وغرامه وواجبه! إنه يمثل الحب في قصصه أروع تمثيل، ثم يعز عليه أن يلقي جورجيت بعبارة حب قوي واحدة!

إنه يدخر الحب والعطف والرقة والحنان وسائر الانفعالات البشرية للعمل الأدبي وحده، العمل الأدبي الذي هو في نظره مبعث كل شيء وغاية كل شيء.

أجل، إنه لا يعرف الحب الإنساني البسيط العنيف، إنه لا يحس، لا بالقلق ولا بالحيرة ولا بالغيرة، ولا بنعيم اللقاء أو جحيم الفراق، أو جنون التسلط الكامل على من يحب!

إنه يحتقر كل هذا ويمقته، إنه يحاربه في نفسه وفي سواه، بل ويجتهد في أن يطهر صديقته منه.

ولكن جورجيت لم تستطع أن تحتمل، أصابها من فرط الحسرة شبه ذهول. بيد أنها كانت تحب الشاعر، وتود أن تمنحه السعادة الكاملة، وتتوق لازدهار خصائصه الخالقة على يديها، وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثير وحيها، فنزلت على حكمه، وامتثلت لإرادته، وأطاعته طاعة عمياء. كبحت جماح عواطفها كما يريد، خنقت نداء حواسها كما يطلب، لزمت الصمت مثله، واعتادت العيش وفق هواه، بلا حب مشترك عميق صحيح، ساكنة هادئة عاقلة، آلة مسخرة لخدمة العبقري!

وكانت سعيدة بذلك لا تشكو ولا تتململ، تفكر فقط في حاجة الشاعر إليها، وفي جو الراحة الذي يلتمسه منها، فتنصح الخادمة بتخفيض صوتها، وتأمرها بالتمهل في سيرها، وتصرف الدخلاء والمستطلعين، وتمشي على أطراف قدميها، وتفتح الأبواب وتغلقها في رفق؛ مخافة أن يفزع العبقري فكيف عن العمل، فيذهب جهد اليوم هباء!

ولقد ذهبت في التضحية إلى أبعد من هذا، أرادت ألا تحمل الكاتب عبء الإنفاق عليها، فالتحقت بالمسرح الغنائي، وجعلت تمثل في الأوبرات الكبيرة، وظفرت بالشهرة والمال هي أيضًا. بيد أنها أنكرت نفسها في النهاية، وانقطعت لخدمة ماترلنك. فكتبت البحوث الأدبية عنه، وطافت بمختلف العواصم تلقي المحاضرات عن أعماله، ثم تخلت عن فن الغناء، وطاب لها أن تندمج اندماجًا تامًا في فكر الشاعر،

فانصرفت إلى تمثيل الأدوار النسوية في مسرحياته الشهيرة: (مونافانا) و(مريم المجدلية) وغيرهما.

وقد يتساءل القارئ، ما سر إخلاص هذه المرأة للكاتب الأناني القاسي؟ أهو الحب؟ نعم، ولا. كانت جورجيت تحب موريس، ولكنها كانت قبل كل شيء تحب الصورة الشعرية الفذة التي صاغها منه خيالها، تحب أسلوبه وفلسفته، تحب جو أدبه العالي وما فيه من نزعات مثالية، وتأملات روحية، وأخذات صوفية مشرقة خارقة. هذا ما كانت تحبه فيه، وهذا ما أخلصت له من أجله، وما أنكرت ذاتها لإحيائه في عمله، ولكنها كانت مع ذلك امرأة، في حاجة إلى حب آخر. حب تقترن فيه مطالب الروح بمطالب الجسد. وكانت متأهبة لمبادلة ماترلنك هذا الحب، لو أنه نزل بعض الشيء عن عبادته للفكر والفن، ونظر إلى قلب المرأة ومشتهياتها نظرة هوى بشري سليم. بيد أنه أعرض عن إحساسها الأنثوي الزاخر، وأحبها كطيف من أطياف الجمال، واستخدمها أداة لوحيه فقط، فارتدت عواطفها إلى أعماق نفسها، وظلت تتجمع هناك متلهفة وصابرة، ثم انطلقت مذهولة ومخبولة تشهد مصرع أمانيها وأحلامها.

وزاد في عذابها أن العبقري كان فوق إعراضه عنها لا يتورع عن استباحة كل شيء جميل وثمين فيها، كان يستغل حسنها وصباها وذكاءها، كان يقتنص ثمرات روحها ومولدات ذهنها، كان يسرقها. ولما أن كانت تبعث إليه برسائلها المليئة بالأفكار العميقة والخواطر الشائقة، كان لا يتردد

في السطو على هذه الأفكار والخواطر، وانتحالها لنفسه، ومزجها بمادته، ودسها بين سطور كتبه، كأنها من بنات فكره ومن فيض عبقريته.

والحق أن أبدع مؤلفاته: (الحكمة والقدر) و(كنز المتواضعين) و(اجلافين وسيليزيت)، فيها من آراء جورجيت وخواطرها ما عرف الكاتب كيف يفيد منه، وينسبه لنفسه، ويطبعه بطابعه.

وعلى الرغم من كل هذا، فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذي كانت تشتهيه. لم يشفق عليها ولم يرحمها ولم يعترف لها يومًا بأي جميل.

وما إن تقدمت به السن، ولاحت في جو كهولته فتاة لم تناهز العشرين من عمرها، كانت قد مثلت دورًا صغيرًا في إحدى مسرحياته، حتى افتتن بسحر شبابها، وبدا له أن في وسعه تجديد عقله وإحساسه في ضوئها، فرحب بمقدمها، وأنزلها من قلبه ومن داره منزلة النعمة المنقذة، وجمع بينها وبين جورجيت في بيت واحد ثمانية أعوام كاملة، ثم استمع لوشاياتها، وغض الطرف عن دسائسها، وانتهى به الأمر إلى الخضوع لسلطانها، والتزوج منها، والانفصال عن جورجيت.

وبعد أن كانت جورجيت كل شيء في حياته أصبحت لا شيء، بعد أن كانت عروس الشعر الملهمة، أصبحت المرأة المنبوذة التافهة، المرأة التي هدم القضاء هيكل حبها وشردها، وسلط عليها أشباح الفقر والخيبة والشيخوخة، تطاردها وتسمم ما بقي من أيامها!

وهكذا قدر على مخلوقة ضعيفة، حادة المزاج، ملتهبة الخيال،

ساذجة القلب، أن تقع بين مخالب عبقري اتخذها وسيلة لا غاية، واعتصر حياتها، وامتص كل ما فيها ثم مجتها نفسه، فألقى بها في عرض الطريق دونما رحمة أو تبكيت ضمير!

ولكن من السبب في هذا؟ وهل الذنب فيما أصابها ذنب ماترلنك؟ وهل لنا أن نتهمه بالشر المتأصل، والجحود الفطري والقسوة المتعمدة؟ كلا، إنها العبقرية تعيش لنفسها فقط، لا لصاحبها ولا لأقرب المقربين إليه. وما العبقري إلا نصف إله لا يستطيع أن يخلق إلا إذا سلب! يأخذ من الطبيعة كل ما تصل إليه يده، ليرده إلى الناس أصفى جمالًا، وأمتع لذة، وأوفر غنى!

وهذه هي الأنانية الفيرية في أسمى معانيها، أنها أنانية وحشية، ولا بد لها من فرائس لتنمو وتزدهر وتعيش، ولقد كانت جورجيت لوبلان إحدى هذه الفرائس، فتحطمت حياتها. ولكن ذكراها ستظل إلى الأبد مجيدة؛ لأنها كافحت وبذلت وضحت، وأنكرت نفسها في سبيل ما جنته الإنسانية جمعاء من جهود ماترلنك العبقري!

الفصل الثالث
بين مخالب امرأة

"ليست العبرة في الجمال الشائع، بالغًا ما بلغ من حسن التكوين. العبرة في سر الجمال وروحه ومعناه! وسر جمالك هو العاطفة، وروحه هو الألم، ومعناه هو الحب!".

الرسام الإسباني جويا

غرام الرسام جويا

تألق في إسبانيا في مستهل القرن التاسع عشر نجم رسام عبقري هو (فرانشيسكو جويا)، أجمع نقاد الفن حتى يومنا هذا على أن لوحاته الخالدة لا تقل روعة عن مسرحيات شكسبير. وهذه قصة الغرام الأوحد الذي أحس به الفنان في حياته، وكان له أبلغ الأثر في توكيد عبقريته.

كان من عادته أن يحدق إلى مرآته في اليوم مرات، وكان في تلك الليلة الشديدة البرد المكفهرة الجو المنذرة بهبوب عاصفة، منزويًا في فراشه، متدثرًا بأغطيته، ممسكًا بيده مرآة صغيرة يتأمل فيها وجهه المغضن الشاحب النحيل.

وكان إذ ذاك في الخمسين من عمره، رجلًا خائر الأعصاب، منهوك القوى، يعذبه داء معوي خبيث، وتعصف به الوقت بعد الآخر نوبات

حادة من الروماتيزم. أما وجهه فكان أقرب إلى الدمامة منه إلى الجمال، كان وجهًا مستطيلًا ناحلًا، تبرز منه عينان جاحظتان قاتمتان، وأنف منتفخ غليظ، وفم مقوس كبير، وشفتان متدليتان تهزهما رجفة عصبية متعاقبة تثير الدهش والضحك والخوف.

ومضى يتأمل هذا الوجه الذي كان يكرهه، فجاش سخطه على نفسه، وألقى بالمرآة جانبًا، وكادت تنفجر من عينيه الدموع.

وفجأة، سمع صوت خادمه يناديه، فهب من فراشه مذعورًا، وفتح الباب فألفى الخادم يندفع نحوه في ابتهاج ملهوف، ويلوح له برسالة يفوح منها عبير ذكي، رسالة بعثت بها إليه أعظم سيدة في بلاد إسبانيا بعد الملكة، وهي (الدوقة ماريا تيريزا سايتانا).

وافتض الرسالة بعد أن صرف الخادم، ودس المرآة البغيضة تحت الوسادة، وانطرح على الفراش، وقلبه يخفق وأسنانه تصطك، وشرع يقرأ.

وهذا ما كتبته إليه المرأة العظيمة ذات الجمال الرائع:

"لماذا تخاف مني؟ أتعتقد أني شيطان؟ لقد أولعت بفنك الساحر، وآمنت بأنك أقدر وأنبغ رسام في إسبانيا. ولقد أعربت لك عن إعجابي هذا في مناسبات كثيرة. ولكنك كنت توجس مني، وتستريب بي، وتصد عني، وتأبى إلا أن تسير في ركاب الملكة التي غمرتك بالهدايا، وأغدقت عليك الرتب والألقاب، وسخرت فنك لخدمة بلاطها، وجعلت منك مخلوقًا شائعًا متملقًا وضيعًا خليقًا بالسخرية والاحتقار. والحق أني ما

بعثت إليك بهذه الرسالة إلا لأنقذك قبل فوات الوقت، إن الملكة توشك أن تقضي على حريتك التي تصدر عنها كرامتك ويتفجر منها ينبوع فنك، فانبذ الملق والزلفى، وفكر في المرأة التي تقدرك. أنا لا أحبك وإن كنت أعتقد أني قد أحبك، أنا أشعر نحوك بشفقة عميقة؛ لأن الطبيعة الغادرة مالت إليك بوجه، وأعرضت عنك بآخر، ولم تهبك كل شيء! لقد وهبتك العبقرية ولكنها حرمتك الجمال. أنت تعرف قيمة وجهك، ولكن ماذا يهمني الوجه! الوجه يصبح جميلًا متى جاور الجمال. وما جئت أنا إلا لأقدم إليك الشباب والجمال، وأتم نعمة الطبيعة عليك، وأجعل منك فنانًا وإنسانًا. فتعال، تعال ولا تخف! إني أنتظرك الليلة في قصري، ولسوف أكون أسعد النساء لو فزت من ريشتك العبقرية بصورة لي!".

واندفق الدم إلى وجه جويا وهو يقرأ، ومزقت عبارات الرسالة قلبه كأنها رشق السهام. فحنى رأسه على صدره، وطفق يتمثل تلك المرأة الفاتنة، ويكد ذهنه ما استطاع عساه أن يفهم حقيقة شخصيتها وما تريد به. إنه كهل في الخمسين وهي امرأة في الحادية والثلاثين، فهل هي تسخر منه أم تعجب به؟ وهل هي تحبه حبًا هو مزيج من التقدير والزهو؟ أم هي تريد أن تقربه إليها كي تكايد به الملكة غريمتها، وتتفوق تفوقًا ملحوظًا عليها، وتسلب منها أمهر وأنبغ رسام في بلاطها؟

وتقاذفته الهواجس والظنون فنهض وهو يختلج، وجعل يذرع الغرفة، وعبارات الرسالة ترن في أذنيه، وتلهب بدنه كوقع السياط.

وأحس أنه مهين ذليل، فعض على شفتيه، واستجمع مدخر قواه،

وغمغم: "لن أذهب إليها! لن أراها أبد الدهر!".

ولكنه ما لبث أن هتف وهو يهدر: "وهل أستطيع؟ إني أحبها! ما أحببت قط في حياتي امرأة غيرها، وما اهتمت بي أو عطفت علي امرأة يمكن أن أقول أنها شبيهة بها. ومع ذلك فأنا هائم وخائف، متلهف ومتردد، شجاع وجبان! فهل أذهب؟ هل أغامر؟ هل أندفع؟ ناسيًا وجهي وواجبي، ومعتمدًا فقط على عبقرية فكر وروح من المحال أن تنقع غلة امرأة في مقتبل الشباب؟! كلا.. كلا، لن أذهب!".

وذكر زوجته الطيبة الساذجة المسكينة وأولاده الصغار الأبرياء، فانخلع فؤاده وملكته عواطف الحنو والرحمة، فتحول من فوره، ولاذ بالعذراء مريم كعادة الإسبان عند الشدائد، واتجه صوب تمثالها المنصوب في صدر الغرفة وهم بأن يجثو أمامها ويصلي، ولكنه لم يكد يرفع رأسه حتى وقع بصره الزائغ على الرسالة الملقاة على الفراش، فتبددت صورة العذراء من ذهنه، وحلت محلها في مثل خطف البرق صورة الدوقة ماريا تيريزا!

وأرسل نفسًا عميقًا، وتطرح على مقعد، واستسلم بجمع خياله لفتنة الصورة التي أقبلت عليه في شبه هالة من نور، واندمجت فيه واستغرقته.

تمثل الدوقة بقامتها الممشوقة كالرمح، ونظرتها القاطعة كحد السيف، ومروحتها المغلقة المضمومة أبدًا بين قبضتها الصغيرة، والمسددة إلى وجه محدثها، كأنها خنجر مشهور!

وكان يعرف الدوقة حق المعرفة، كانت امرأة قوية في ليونة، ذكية في خبث، رقيقة في دهاء، ناعمة نعومة الصل، كاسرة عند الاقتضاء كالوحش، مفتونة بكل جديد من العواطف، وكل غريب طريف من المتع والملذات.

وراعته صورتها، وعاد الخوف فاستبد به، ولكن حبه كان أقوى من خوفه، وتلهفه كان أقوى من عزيمته، وإحساسه بالزهو والخيلاء أقوى من صوت ضميره، وأبلغ أثرًا في نفسه من شعوره بالواجب نحو زوجته وأبنائه.

وانسحق تحت وطأة ضعفه، وأيقن من عجزه عن مقاومة عواطفه، فنهض بالرغم منه، وارتدى ثيابه على عجل، ثم جمع أدوات الرسم ودسها تحت معطفه، وانسل من البيت والكل نيام، واقتحم العاصفة التي كانت قد انفجرت في الخارج، ويمم وجهه شطر القصر الذي تقيم فيه الدوقة ماريا تيريزا.

وكان المطر يهطل، والريح تدوي، وبوارق الرعد تخطف الأبصار، والسماء تتكاثف غيومها تارة وتتمزق وتومض أخرى، فتلقي الرعب في النفس، وتدفع السابلة إلى الفرار.

وكان جويا يحث خطاه جهده، ويخترق شوارع مدريد المظلمة التي رقد أهلها، وانطفأت شعلة حياتها، وخيم عليها صمت رهيب لا تعكره غير جلجلة الرعد، وخشخشة المطر وهو يضرب النوافذ والشرفات ويتساقط في عنف على الأرض.

ولما بلغ جويا القصر، حياه الحارس وأفسح له الطريق، وبرزت إحدى الوصيفات، وقادته إلى دهليز يؤدي إلى مكتب الدوقة.

ودخل الحجرة وهو مبلل الثياب ينتفض من شدة البرد، فألفى الدوقة مستلقية على مقعد مستطيل، ومرتدية ثوبًا أحمر مرصعًا بزهرات ذهبية لامعة، وممسكة بيدها مروحتها الصغيرة تعبث بها في رخاوة وتبتسم.

وما إن انصرفت الوصيفة، وأوصدت خلفها الباب، حتى ساد الحجرة صمت زافر خانق ثقيل.

وفجأة تحركت الدوقة، ومدت ذراعها الناصعة البياض، وقالت في صوت ناعم خفيض رخيم:

"مساء الخير يا فرانشيسكو، كنت واثقة من قدومك فانتظرتك في طمأنينة وهدوء. تقدم.. تقدم واجلس هنا".

فجاهد ليكبح الرعدة المتمشية في بدنه، وانحنى وقبل يد المرأة في احترام، ثم تمالك نفسه، واستدار بغتة وشرع يرتب في سكون أدوات الرسم.

وكانت تنظر إليه بعينيها السوداوين المتقدتين، ولكنه لم يكترث لها، ولم يجلس بجوارها، ومضى يعد أدوات الرسم في هدوء. فمالت إليه بغتة وجذبته من ذراعه، وقالت له وهي ما تفتأ تبتسم:

"أما زلت تخاف مني؟ ما أغربكم أيها الفنانون! إنكم شجعان أمام الفكر، وأمام البؤس، وأمام الحياة. ولكنكم مستضعفون جبناء أمام أية امرأة!".

فتظاهر بأنه لم يفهم، وأمعن في صده وتحفظه، وقال وهو يتهيأ للرسم

ويضع اللوحة البيضاء فوق القاعدة: "ألا تريدين أن نبدأ في رسم صورتك؟".

فاستضحكت، وهتفت وهي تتلوى على نفسها تلوي أفعى: "ما أغناني بك عن الصورة، وما أغناك بي عن صورتي لو كنت تعقل!".

ووثبت به، وتعلقت بعنقه، وأردفت وهي تلاطف بأناملها خده الغائر الممتقع وأنفه المنتفخ الغليظ:

"أنا لا أزعم أنك جميل، ولكنك في الحق أكثر من جميل! إن عبقريتك تضفي على وجهك الغريب حلة شائقة من مجد وجلال! وإني لأقرأ في هذه القسمات المشوشة، وهذه التجاعيد الغائرة، صفحات رائعة من التجارب والآلام، تأسرني وتخلب لبي، ولا أستطيع إلا أن أقدسها وأخشع أمامها! ليست العبرة في الجمال الشائع بالغًا ما بلغ من حسن التكوين، العبرة كل العبرة في سر الجمال وروحه ومعناه، وسر جمالك هو العاطفة، وروحه هو الألم، ومعناه هو الحب!".

وطوقته بذراعيها، وأدنت منه وجهها الصبيح، حيث تموج ضفائر شعرها الأسود المنعقد حول رأسها كالإكليل. فخفق قلبه، وترنح وانتشى، وخيل إليه أن المرأة حقًا تحبه، فأفلت منه زمام نفسه واستضعف، وهم بأن يضمها ويعانقها ويقبل فمها الناتئ المنفرج الصغير، الشبيه بثمرة خرافية مسحورة، فيها الموت وفيها الحياة.

واستشعرت المرأة ضعفه، وأطربها انتصارها المكفول، فتراجعت فجأة وصاحت:

"أتظن أني يمكن أن أقربك وأسعدك وأفخر بك، وأنت ما تزال عبد الملكة الخاضع لمشيئتها، المنقطع لخدمتها، الراتع في بلاطها كما يرتع الحيوان المدلل في حجر سيده؟ كلا! أنا أعلم أن ليس بين الملكة وبينك أية علاقة مريبة. ولكني أكره تلك المرأة، وأكره كل من يتزلف إليها، وكل من تذهب بلبه فتنة المال وشهوة المجد الرخيص، فيغدق على الملكة من نبوغه أو ذكائه أو عبقريته آلاء تجملها وتلهب كبرياءها وتضاعف نفوذها وسلطانها، وأنت تفعل ذلك! أجل أنت. لقد رسمت لها أكثر من عشر صور، فأنت تسخر عبقريتك لمجدها لا لمجدك، وهذه السخرة الشائنة لا بد أن تقتل فيك على مر الزمن كل مواهبك، فيجب أن تنقذ نفسك إذا شئت أن تصبح جديرًا بحبي! يجب أن تقطع صلتك بالملكة، يجب أن تكون لي، لي أنا وحدي! أتسمع؟"

فارتد جويا مذعورًا، وتقبضت عضلات وجهه، وأرسل أنة مخنوقة، وتأكد من صحة ظنونه ومن أن الدوقة ماكرة وخبيثة ومغرضة، وأنها لم تحببه أبدًا، ولن تحبه ابدًا، وأن كل ما ترمي إليه هو اجتذابه وإغراؤه وغوايته، غيرة من الملكة وتشفيًا فيها، وإذلالًا لها، وتفوقًا عليها.

وحز في نفسه أن يصبح مجرد أداة مكايدة وثأر وزهو بين يدي امرأة طموح قاسية لا قلب لها. فثاب إلى رشده، وتقهقر لفوره، وأسرع فانطلق صوب القاعدة، وقال في صوت صارم أجش وهو يمزج ألوانه، ويرمق الدوقة بنظرة أبية متحدية:

"خذي مكانك ياسيدتي في أي وضع تشائين! يجب أن نبدأ العمل

حالًا، فقد أوشك الليل أن ينتصف، وقد غادرت منزلي دون أن أنبئ امرأتي، ويجب أن أعود إليها لأطمئنها، واختلس بضع ساعات أستريح فيها، كي أنهض في غد موفور القوى، متأهبًا للذهاب إلى البلاط وإنجاز آخر صورة للملكة!".

فشحب وجه الدوقة شحوبًا مروعًا، وتقطب جبينها، وغاضت ابتسامتها، وظلت يدها القابضة على المروحة المغلقة المشرعة كالخنجر، ترتعش وهي لا تعرف أين تسدد الضربة وكيف تطعن خصمها بحيث تصيبه في مقتل وترديه.

وانقضت فترة صمت قصيرة، ثم تمالكت الدوقة نفسها وترقرق الابتسام فجأة على محياها، فتأملت الرسام من خلال أهدابها، وقالت بصوتها الناعم الرخيم: "أنت ضيفي ياسيد فرانشيسكو".

وأردفت وعيناها تقدحان الشرر: "ولن تذهب في غد إلى البلاط، ولن ترى الملكة! ستمكث هنا في هذه الغرفة! ستمكث أسبوعًا، أسبوعًا بطوله حتى تتم صورتي!".

فاندفع جويا نحوها صارخًا كطفل: "ولكن هذه مكيدة!".

فمشت إليه بقامتها الممشوقة كالرمح، وثبتت في وجهه لحظة ثم قالت في هدوء: "هذا أمري!".

وأرسلت ضحكة مدوية، وتحولت ومرقت من الباب، فعدا الرسام خلفها فاصطدم بالباب الموصد، فعالجه فانفتح، فهم بالخروج، فأبصر

أمامه حارسًا مدججًا بالسلاح، رده في رفق، وعاد فأوصد عليه الباب.

فثار ثائر جويا، وطفق يذرع الغرفة كمعتوه، وضحكات المرأة تدوي في أذنيه، وتختلط بهدير العاصفة الثائرة في الخارج. ثم خارت أعصابه، ورزح تحت وطأة الكمد والحنق، ولم يجد بدًا من الخضوع والتسليم.

وجاءه حارس الغرفة بطعام وشراب، فأبى أول الأمر أن يأكل، ولكن الجوع كان أقوى منه، فازدرد قطعة من اللحم، واجترع كأسًا من النبيذ، ثم غلبه النعاس، فتمدد على المقعد المستطيل حيث كانت تجلس الدوقة، وتقلب وتململ فترة، ثم راح في سبات عميق.

ومكث في الحجرة سجينًا سبعة أيام وكانت الدوقة تزوره في كل يوم، وتجلس إليه الساعات الطويلة، وتبذل قصاراها في تحطيم إرادته، وقهر عزيمته، ودفعه لا إلى رسم صورتها بل إلى الهيام بها، والافتتان بمحاسنها، والارتماء صاغرًا بين أحضانها.

ولكن جويا كان يسخط ويستنكر ويقاوم، كان يقاوم دفاعًا عن كرامته، وذودًا عن رجولته، وخوفًا على نفسه من أن يصبح في غد عبدًا ذليلًا لهذه المرأة التي يحبها، ويعلم علم اليقين أنها تستخدمه لإشباع نزواتها وغرائزها، وأنها لا يمكن أن تحبه أو تعطف عليه أو ترحمه.

وأحست المرأة أنه عنيد وأنه قوي، وأنه قد يهزمها وأنها قد تحبه. فكبر عليها أن تنعكس الآية، وأن تنقلب هي من قناصة إلى فريسة، فافتنت في إغوائه، ولم تدع سلاحًا من أسلحة أنوثتها إلا جردته عليه، فاستعصم

أيضًا وقاوم، وظل يقاوم ويكافح. ولكن المرأة كانت بالقرب منه، تحاوره وتداوره، وتتعقبه وتطارده، وترتد عنه ثم تعود فتكر عليه. فتخاذل وتخبط، وطوح به الدوار، فهوى بين ذراعيها في اليوم الخامس وهو لا يعي.

وكان قد حدث في اليوم الأول أن بعثت زوجة جويا بخادمها إلى القصر يستفسر عن قرينها، فقيل له إن الرسام لن يغادر القصر إلا بعد أسبوع يتم فيه صورة للدوقة. ولكن الخادم عاد في اليوم الثالث وأصر على مقابلة الدوقة نفسها، وقال لحارس القصر إن ابنة الرسام مريضة، وإنه يجب أن يعني بها، ويسرع بالعودة إلى البيت، فأنهى الحارس النبأ إلى الدوقة، فأمرته بطرد الخادم ثم كتمت النبأ عن الرسام خشية أن يضطرب ويقلق ويشتد في الصد عنها ويعتزم الرحيل.

فلما انتهى الأسبوع، وسجلت الدوقة انتصارها، وأطلقت سراح جويا، خرج الرجل من سجنه مسلوب العزة، منتهك الكرامة، حزينًا كئيبًا، لا يدري بأي وجه وأي ضمير يدخل بيته، ويطالع أسرته، ويقبل امرأته وأولاده.

وسار بضع خطوات وهو شارد، ولكنه لم يكد يتحول ويضرب في الطريق المؤدي إلى منزله، حتى تراجع بغتة وتوقف وجمد!

أبصر في منعطف الطريق زوجته وأولاده، وقد اتشحوا بالسواد، يقبلون عليه، ويحيطون به، ويوسعونه ضمًا وتقبيلًا وهم يبكون.

وتفرس فيهم كمخبول، فلم يجد بينهم ابنته الصغيرة (سيلفيا)، فاستفسر عنها ملهوفًا، فقالت الأم وهي تنتحب إن الفتاة قد أصيبت

بالدفتريا منذ يومين وماتت، وإن الخادم حمل إلى حارس القصر نبأ مرضها، وأن الحارس أبلغ النبأ إلى الدوقة، فأصدرت أمرها بطرد الخادم، ومنع أي كان من دخول القصر. فجن جنون جويا، وهاله تدبير المرأة الغادرة وفاض به الألم والكمد واليأس، فطفق يبكي وهو يتوسل إلى زوجته وأولاده أن يذهبوا به إلى قبر ابنته.

وما إن شاهد القبر حتى تداعت قواه وأوشك أن يسقط مغشيًا عليه، ولكن كبرياءه ردته إلى صوابه، وألهبت أعصابه وأيقظت إرادته، فاشتد حقده على ضعفه، وعاهد نفسه أمام قبر ابنته أن يقطع كل صلة له بالدوقة.

وبدأ يعتقد أن لعنة الله قد حلت عليه لاقترافه جريمة الزنا، وأن الله قد عاقبه على جريمته في شخص ابنته، فأبغض الدوقة بغضًا هائلًا، وانطوى على نفسه، وكف عن الذهاب إلى البلاط، فنقمت عليه الملكة التي علمت بجريمته، وأقصته عن نعمتها، فصبر واحتمل، وعكف على الصوم والصلاة وأعمال البر، يكفر بها عن خطيئته وينشد العزاء والسلوى.

وهكذا عاش بضعة أسابيع وحيدًا شريدًا، مستوحشًا نفورًا، لا تطيب له الحياة إلا في ظل التأمل والانطواء.

بيد أن الانطواء في غمرة الفكر والعزلة رده فجأة إلى غرامه ووضعه أمام معبودته، وواجهه بالطيف الذي كان يرتعد فرقًا منه!

ورأى طيف الدوقة في كل مكان، في خياله وفكره، في يقظته ومنامه، في بيته وبين أفراد أسرته. فأحس أن الهوس يكاد يجتاحه وينهب

عقله، فكبر عليه أن يصرع الحقيقة ويصرعه الخيال. فأراد أن يهزم هذا الخيال ويبدده ويفنيه، فلم يجد سبيلًا إلى ذلك غير الفن، فمضى يتمثل الدوقة، ويرسم لها عدة صور، عساه أن يتخلص من تأثيرها ويستريح.

ورسمها في شكل عذراء، وفي شكل فارسة، وفي شكل ملك، وفي شكل شيطان. ولكنه كان يخدع نفسه وهو لا يدري، كان يحيي المرأة بفنه، ويبعثها بسحر ألوانه، ويجدد تأثيرها، ويضاعف فتنتها، ويملأ بها فكره وقلبه وعزلته وحياته.

ومن شعلة الفن التهب الحب، وعاد فاتقد في صدر الرجل اتقادًا مبرحًا مذيبًا، لم يكن ليخطر له على بال.

وبات مشدودًا إلى المرأة، مغلولًا بها، متلهفًا عليها، يتمنى من أعماق نفسه لو سعت هي إليه؛ كي يظل محتفظًا بشيء من كرامته ولو في الظاهر فقط! وكان له ما أراد.

استمهلته الدوقة فترة طويلة وأعرضت عنه عامدة لتلهبه، ثم عادت فكتبت إليه فجأة، وصبت في عباراتها أرق وأعذب كلمات الشوق والندم، والتمست منه أن يصفح عنها ويزورها.

ولم يكد يقرأ الخطاب حتى استعر في نفسه الحنين إلى الماضي، وخيل إليه أن جميع أبواب الدنيا قد انفتحت بغتة أمامه. فلم يتئد، ولم يفكر، ولم يقاوم، ونهض في نشوة الفرح والأمل كما ينهض الشاب في أول موعد غرام، وارتدى أجمل ثيابه، وتطيب وتعطر، وأسرع إلى القصر.

قادته الوصيفة إلى الدهليز الطويل، ولكنها تنكبت في هذه المرة حجرة المكتب، ودارت حولها، وسارت به في أبهاء واسعة وتحت قباب عالية، ثم حيته وانصرفت بعد أن أوصلته إلى ردهة صغيرة مجاورة لحديقة القصر، ينهض في مؤخرتها باب حديدي ضخم هو باب مخدع الدوقة.

وكان القصر يسبح في سكون عميق كسكون الدير، وكانت أشعة القمر الشاحبة المتراقصة في الحديقة على الأشجار والأغصان، تنصب من خلال جدران النافذة المفتوحة المرتفعة وتلقي شبه بساط بنفسجي على جزء كبير من أرض الردهة، ذات البلاط الرخامي الأسود المشرب بتفويف وردي لامع، واستأنس جويا بالضوء، وتقلب فيه وجلس ينتظر.

وانقضت بضع دقائق ولم تظهر الدوقة، فتململ الرسام ونهض، ودنا من الباب الحديدي وهم بأن يطرقه، ولكنه استنكر هذا المسلك، فتحول ورفع رأسه، ومضى يتأمل ضوء القمر وهو يتراقص على الأغصان.

وتكاثف الصمت، وباتت تسمع من جوفه العميق أبسط حركة، فأنصت جويا في لذة إلى حفيف الشجر وخرير المياه، ثم ارتد وقد عيل صبره وحاول أن يهدأ ويجلس، وفجأة ومن جوف الصمت الزافر، ترامت إليه غمغمة طويلة مشوبة بتنهدات وهمسات، فأرهف السمع بالرغم منه، وأحس أن هذا الصوت منبعث من الحديقة، وخيل إليه أنه صوت الدوقة تتحدث إلى إنسان.

وتعالى الصوت، فأيقن الرسام أنه صوت حبيبته، فاهتاج فضوله، ونهض بخطى وئيدة، وأدنى المقعد من النافذة ووثب عليه، وأخذ يتطلع إلى الحديقة من خلال القضبان المتلاصقة.

كان القمر يريق على أرض الحديقة ضوء الساطع، فأمعن الرسام في التطلع وهو زائغ البصر، ثم اشرأب بعنقه وقد غشيه ذهول، ثم اختلج اختلاجًا عنيفًا، وتعلق جهده بقضبان النافذة خشية أن تخونه قواه وتزل به القدم فيسقط.

أبصر أمامه، على مرمى ذراعين منه، في وهج النور الغاشم الفاضح، ربة القصر نفسها، الدوقة ماريا تيريزا، واقفة على عتبة باب من أبواب مخدعها مؤدٍ إلى الحديقة، محلولة الشعر مكشوفة الصدر، تعانق طبيبها الشاب (دون ميجيل)، وذراعاها ملتفتان حول عنقه، ورأسها ملتصق بصدره، يترنح ويتماوج تحت أشعة القمر.

وأحس جويا كأن قلبه تخترقه طعنة سكين، فغلى دمه في عروقه، وتصاعد الدم إلى وجهه وكاد يعميه. أراد أن يهبط ولكن أعضاءه المتشنجه خذلته، وأراد أن يصرخ ولكن ضربات قلبه خنقته. فظل متشبثًا بقضبان النافذة، يشرئب وينصت وينعم النظر.

وسمع الدوقة تقول لطبيبها، وهي تقبله:

"أمثلك يغار من ذلك الكهل الأبله الدميم المدعو جويا؟ أقسم لك بحبي أني لم أكن له أبدًا! ما قربته إلا لتكون لي حاشية من مشاهير الرجال، أعزز بها مكانتي ونفوذي، بحيث أنافس الملكة التي تغار مني، وألقي في قلبها الرعب إذا ما حدثتها نفسها يومًا بمغالبتي أو التعرض لي بسوء. هذا هو مقصدي! أن أتفوق عليها وأصبح أنا الملكة الحقيقية في البلاد! أما جويا، صفيها وفخر بلاطها، فأنا اليوم أدير خاتم حياته في إصبعي كما يحلو لي،

ولسوف أقتاده من عنقه كالكلب، وأجعل منه فيما بعد مهرج قصري، وأجبره الليلة على أن يبدع لي أجمل وأكمل صورة عرفت لامرأة! فانصرف يا ميجيل ولا تحزن، وثق أني لك وحدك، وأنك عندي أعز وأغلى حبيب!"

وقبلت الشاب قبلة طويلة محمومة، وشيعته حتى مدخل الحديقة، ثم كرت راجعة ودخلت مخدعها.

وهبط جويا من المقعد إلى الأرض وهو يهدر، تصبب العرق من جبينه، وأحس كأن بدنه قد استحال إلى أتون مستعر، فأقصى المقعد عن النافذة، واستدار وواجه الباب الحديدي الضخم الذي لم يلبث أن فتح ودخلت منه الدوقة!

دخلت المرأة محلولة الشعر، مكشوفة الصدر، ترفل في نفس الثوب الذي استقبلت به عشيقها، وكانت بسامة الثغر، مشرقة الوجه، متهللة الأسارير، فطوقت الرسام بذراعها بدل أن تصافحه، وهتفت وهي توشك أن ترتمي عليه وتضمه إلى صدرها:

"معذرة يا فرانشيسكو، لقد فاجأني وكيل أعمالي لشأن من الشؤون، فاضطررت أن أستبقيه لحظة ثم صرفته وأسرعت إليك".

فحدق إليها تحديقًا ثابتًا ولم يتكلم، حدق إليها كأنه لم يعرفها أبدًا، وكأنه يراها لأول مرة، حدق إليها كما يحدق الإنسان إلى ظاهرة شاذه مروعة، أو إلى حيوان فاتك خبيث، أو إلى مجرم عريق في الإجرام. فاستغربت حدة بصره وجموده، ومالت إليه تؤانسه وتلاطفه وتدعوه إلى

دخول مخدعها، ولكن جويا نحاها عنه في أدب، وقال في هدوء عميق، وبصره الحاد ما ينفك مصوبًا إليها:

"إذن فقد كنت مع وكيل أعمالك؟!".

فأجابت وهي تبتسم ابتسامة ملؤها السذاجة والبراءة والصفاء:

"أهذا جزائي لأني صرفته حالًا وأسرعت إليك؟"

فهالته وقاحة نفاقها، فانقض عليها كالوحش، وصاح بها وهو يجذبها من ذراعها ويجرها نحو النافذة:

"لأنت سيدة الأكاذيب! لقد رأيتك من هنا! رأيتك بعيني رأسي تعانقين وتقبلين عشيقك، عشيقك دون ميجيل الذي كان الساعة في مخدعك. إنك لفاجرة! أتسمعين! إنك لفاجرة!

وجاش بغضبه المكظوم، وحرقته لوعته المرة، فانحنى عليها ورفع كفه وهم بأن يصفعها.

وعندئذ، وفي تلك اللحظة الرهيبة التي لم تبرح ذهن جويا حتى يومه الأخير، ارتعشت يده فجأة، وجحظت عيناه، والتوت شفتاه، وأحس كأن صاعقة قد انفجرت في رأسه. فتلفت حوله كمجنون وطفق يردد: "إنك لفاجرة!" ولكنه لم يسمع شيئًا،لم يسمع صوته وهو يصرخ، ولم يسمع أيضًا صوت الدوقة وهي تتكلم! كان يرى فمها ينفتح وينطبق وتنهمر منه كلمات متعاقبة كالسيل. ولكنه كان يرى الفم البغيض فقط، أما الكلمات فلم يفهمها، لم يسمعها! لم يسمع شيئًا! فصرخ كالمطعون

وهو يتخبط ويتلوى: "أنا لا أسمع.. لا أسمع.. لم أعد أسمع شيئًا!".

وأصابه ما أصاب بيتهوفن العظيم، أناخ عليه الصمم فجأة وصرعه. ففقد صوابه ولم يصدق، ثم أراد أن يتأكد ويستوثق، فاختطف زهرية كانت موضوعة فوق خوان، وضرب بها الأرض، ولكنه رأى الزهرية تتحطم دون أن تحدث أي صوت، فأيقن من الكارثة وازداد خبله. فعاد وانقض على الدوقة يريد أن يخنقها، ولكنها كانت قد استنجدت بالحرس، فخفوا لنجدتها، فلما أبصرهم جويا محيطين به، متألبين عليه، منشبين فيه أظافرهم كأنه لص أو سفاح أو معتوه، ثاب إلى رشده، وارتد عن المرأة. فأشارت إليهم وهي ترتعد بأن يدعوه حرًا ويفسحوا له الطريق. فأجال الرجل فيهم بصره الزائغ، ثم تقهقر وهو يرتعش، ثم تحامل على نفسه، وخرج من حيث أتى، مطرق الرأس، محني الظهر، تائهًا منسحقًا، تترقرق من عينيه الدموع.

ولما دخل بيته وخلا إلى نفسه، فكر طويلًا ولم يجد بدًا من الخضوع والتسليم. فكر وأدرك، أدرك أن القدر لم يضربه إلا لينقذه،ولم يخمد فى أذنيه دعوة الدنيا إلا ليرده مصهورًا مطهرًا إلى عالم الفن والجمال.

فنهض، ودخل حجرة عمله، وتطلع إلى الصور التي كان قد رسمها للدوقة، ولكنه لم يشعر أمام الصور لا بثورة ولا بحقد، بل شعر على دهش منه براحة مفاجئة غريبة، راحة قريرة عميقة يمازجها الذهول والفرح والقوة والإعجاب.

الفصل الرابع

قوة الحب وقوة الإبداع

"لا يستطيع الفنان أن يعيش في عالم مغلق شائع مألوف. الفنان لا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس وهو محبوس بين جدران قفص. الفنان لا بد أن يتجدد، وهو إن لم يتجدد مات. والحب بما فيه من قوى التيقظ الدائم هو الذي ينعش طبيعته ويجدد وحيه، ويضاعف فيه إرادة الخلق والإبتكار".

الموسيقي الإيطالي كاتالاني

المرأة في حياة الموسيقى كاتالاني

صمت الرسام (برناردو) لحظة، ثم تفرس في صديقه الموسيقي ألفريدو كاتالاني وقال:

"وإذن فأنت تؤمن بالحب بوصفه القوة الخالقة الكبرى، وتعتقد أن الحب وحده هو الذي يمكن أن يلهب خيال الفنان ويضرم في نفسه الشعلة المقدسة التي تدفعه إلى إبداع الروائع. أليس كذلك؟"

فقال الموسيقي وهو يشتف نفسًا من سيجارته، ويرسل ذوائب دخانها في الفضاء:

"لا ريب في أن الحب هو كل شيء بالنسبة إلى الفنان. الفنان لا يستطيع أن يعيش في عالم مغلق شائع مألوف. الفنان لا يستطيع أن

يتحرك أو يتنفس وهو محبوس بين جدران قفص. الفنان لا بد أن يتجدد، وهو إن لم يتجدد مات.

والحب بما فيه من قوى التيقظ الدائم، والحركة المطردة، والانفعال المتعاقب، والكفاح المتواصل المحموم، هو الذي ينعش طبيعته، ويجدد وحيه، ويضاعف فيه إرادة الخلق والابتكار".

فصاح الرسام وهو يبتسم: "ولكنك تصور الحب في شكل إعصار، فهل في وسع أي فنان أن يفكر ويتأمل ويخلق وهو يعيش في شبه إعصار؟".

فقال الموسيقى: "إن إعصار الحب هو الحياة، وما دام الفنان قويًا فلا يجب أن نخشى عليه ثورة الإعصار، التي هي ثورة الحياة!".

فلم يقتنع الرسام وردد: "أريد أن أفهم كيف يمكنك أن تخلو إلى نفسك وتصور الحياة بفنك، وأنت تسمع زئير الإعصار؟ إن إعصار الحب قد يخلب لب فنان ناشئ، وقد يزوده بالتجارب، ويفتح أمامه أبواب الفكر والدنيا. أما أنت، أنت الفنان الذي اكتهل وجرب الحياة، فمن واجبك أن تقهر الحب وتقهر الإعصار؛ لتستطيع أن تصور في هدوء الفكر الثابت الواعي قوة الحب وقوة الإعصار. لا يا ألفريدو! الهدوء بالنسبة لك هو الحافز على العمل، والسكينة هي الباعثة على التفكير، وراحة الضمير والقلب أبلغ ألف مرة في التأثير على نفس فنان مثلك من عاطفة الحب المشبوبة المضطرمة، التي لا تعيش إلا في عالم الجنون والفوضى!".

واتأد الرسام فترة أخرى، ثم انحنى على صديقه وقال وهو يتفرس فيه:

"لا تخدع نفسك! لقد عشت مع زوجتك (سيلفيا) حياة سعيدة هادئة، حياة مستقرة ناعمة. فاستطعت في ظل تلك المرأة العظيمة النبيلة أن تؤلف ثلاث مسرحيات غنائية ناجحة، ومسرحية رابعة فذة هي (لوريلاي) التي جعلت منك بين عشية وضحاها أكبر مؤلف موسيقي في إيطاليا! والآن، الآن وقد بلغت الثالثة والخمسين من عمرك، زهدت نفسك في الراحة، وزهد عقلك في الهدوء، وتاق فؤادك إلى الحب!".

ولقد أحببت! نعم، أحببت الغانية الساحرة (أدريانا)، الممثلة المطربة التي حققت خيالك، وجسمت حلمك، ومثلت في مسرحيتك الدور الأول. عشقتها ونسيت زوجتك! زوجتك التي لولا حبها ورعايتها وإخلاصها المنقطع النظير ما استطعت أن تخلق ذلك الفن الرائع الذي تقدمه اليوم هدية لسواها. فاحذر، احذر يا ألفريدو! أنت تغامر بعبقريتك من حيث تريد لها التألق والازدهار!".

فصرخ الموسيقى: "لم يعد في مقدوري أن أبتكر نغمًا أو أسجل لحنًا وأنا أعيش بعيدًا عن أدريانا!".

فقال الرسام محتدًا:

"ولكنك تراها، وتتصل بها، ومع ذلك فأنت عاجز عن العمل، عاجز عن التفكير، لماذا؟ لأنك مضطرب، لأنك قلق، لأنك تحب! أفي وسعك أن تنكر أنك أصبحت عاجزًا عن إتمام مسرحيتك الجديدة (الطائر الجريح)؟ لقد

لحنت معظم مواقفها، ولكنك أصبت بالشلل الذهني التام عندما أردت أن ترسم بموسيقاك ذلك المشهد الرئيسي الفاجع. مشهد العاشق المعذب الذي خدعته معشوقته، ومزقت بخيانتها قلبه وحياته! أجل، عجزت عن رسم هذا المشهد الذي هو دعامة مسرحيتك؛ لأنك مسلوب العقل، مشوش الفكر، خاضع لسلطان الحب ممثلًا في تلك الغانية!".

فصاح ألفريدو: "أنت واهم، أنا لا أشعر بالعجز عن الإنتاج والعجز عن تلحين ذلك المشهد الذي يحيرني ويعذبني إلا لأني في الحقيقة جبان!".

– ماذا تقصد بهذه العبارة؟

فقال الموسيقى في صوت أجش: "يجب أن أطلق زوجتي وأقترن بأدريانا! ومتى اقترنت بها استطعت أن أنتج وأبتكر وأجدد فني وحياتي!".

فهتف الرسام مستهولًا: "تقترن بها؟ تتخذ من تلك الغانية الغادرة المتقلبة اللعوب زوجة لك؟ إنها الشيطان!".

فغمغم ألفريدو: "في وسع حبي أن يجعل من ذلك الشيطان ملكًا كريمًا!".

فأمسك الرسام بكتفي صديقه، وطفق يهزه هزًا عنيفًا ويقول:

"ثب إلى رشدك! ابقَ بجوار امرأتك! احرص على هدوئك وفكر في فنك فقط. فكر في وضع ذلك المشهد الناقص من مسرحيتك، ذلك المشهد الذي لو فشلت في تصويره، فسينهار مجدك في لحظة كما تألق وأزدهر في لحظة!"

فقال ألفريدو وهو يرتجف: "لا أستطيع!".

فصاح الرسام وقد عيل صبره:

"إذن صارح امرأتك ولا تعذبها! أولى بك أن تطلقها من أن تظل زوجها ثم تخدعها! إنها في غرفتها تنتظر نتيجة مسعاي، فنادها وخاطبها!".

فشخص الموسيقي إلى صديقه مبهوتًا وقال: "أكنتما إذن على إتفاق؟".

ففتح الباب عندئذ في عنف، ودخلت الزوجة المخدوعة وهتفت:

"نعم، أنا. أنا التي رجوته أن يتحدث إليك عساه أن يردك إلى صوابك. ولكنك ما دمت تحب تلك المرأة إلى هذا الحد، فاذهب إليها! حاول إن استطعت أن تفكر وتعمل وتخلق بجوارها! أجل، اذهب إليها وعش معها، ولكن امنحني أملًا واحدًا، وعدًا صريحًا، وهو ألا تفكر في طلاقنا إلا بعد مضي ثلاثة أشهر! فإذا انقضت هذه الفترة وشعرت بأنك لن تستطيع أن تجعل من ذلك الشيطان ملكًا كريمًا كما قلت، فعد إلي. عد إلي يا ألفريدو وأنا أصفح عنك!".

فذهل الزوج من هذا العرض العجيب وقال: "لا أرغب في أن أسومك مثل هذا الذل!".

فصاحت المرأة:

"ولكني راضية بالذل والعذاب، لا من أجلك أنت فقط، بل من أجل فنك أيضًا! لقد عشت معك عشر سنوات فشب عقلك أمامي، وترعرع نبوغك بجواري، وأينعت عبقريتك في ظلي، وبات فنك قطعة من

لحمي وجزءًا من دمي. على أن فنك يا ألفريدو هو أعظم مني ومنك، هو ملك الإنسانية لا ملكك، فأنا أحرص عليه كما أحرص عليك، وأزود عنه كما أزود عنك، فاذهب إلى عشيقتك، إلى عالم الجنون والفوضى. وإذا شعرت بأن الشعلة ما تزال متقدة فيك، فابقَ هناك، وإلا فعد إلي أضرم النار في صدرك مرة أخرى".

وصمتت وهي تلهث، وفجأة انبعث من غرفة مخدعها صوت شقيقتها تدعوها لإرضاع طفلها، فاختلجت وأسرعت إلى المخدع، ثم عادت وهي ترتعد. وما كادت تدخل الحجرة، حتى أبصرت زوجها وقد أشرق وجهه، وزايلته بغتة عوامل الهم والقلق، يلقي معطفه على كتفه، ويبحث عن قبعته، ويهم بالخروج. فعدت إليه ملهوفة، وقالت وقد جحظت عيناها: "أفي نيتك أن تذهب إليها الآن؟".

فتطلع الفنان إلى زوجته مستغربًا وقال: "أليس هذا هو ما اتفقنا عليه؟".

فصرخت: "الليلة لا! لا تذهب الليلة إلى هناك، لقد أوشك الليل أن ينتصف، فتمهل إلى غد! إلى غد فقط، أتوسل إليك!".

فحدق إليها ساخطًا متضجرًا وصاح: "ما معنى انقلابك هذا؟".

فجثت أمامه وقالت والدمع يثب من عينيها: "ابقَ هنا إلى الغد! إلى الغد فقط".

فلم يحفل بها، ودفعها عنه في عنف، واتجه نحو الباب وخرج،

فارتمت على صديقه، وأمسكت به، وهمست في أذنه وهي تهدر وتنتفض:

"لم أذهب لإرضاع طفلي. لقد نادتني شقيقتي لتفضي إلى بما أسره إليها الآن ابن عمي الذي كان هنا، وآثر أن يذهب دون أن يلتقي بزوجي. كنت قد عهدت إليه بأن يراقب سلوك أدريانا، فأنبأ شقيقتي أن المركيز دي مونتي عشيق أدريانا المفضل، عشيقها الشاب، الشاب الثري الجميل الذي تحبه وتخدع من أجله زوجي، هو الآن معها في بيتها! فأسرع يا صديقي ولا تضيع الوقت، أسرع وإلا تهور الفريد واندفع إلى ارتكاب جريمة! أخرج بنا من هنا نحو هذا الشارع الخلفي، يجب أن نسبق ألفريدو إلى هناك!".

ودفعت الرجل إلى الخارج، ثم جاشت عواطفها، فانطلقت متأبطة ذراعه، وانفجرت من عينيها الدموع. وانطلقا في الشارع الكبير، واخترقا أزقة ساكنة، ودروبًا ضيقة، حتى بلغا ميدانًا فسيحًا في وسطه حديقة عامة، ينهض في طرفها منزل صغير هو منزل المغنية أدريانا، وقد بدت جدرانه ناصعة البياض في ضوء القمر الساطع، فاتجها نحوه وقلباهما يخفقان، وأنفاسهما المتعاقبة تكاد تخنقهما. وإنهما ليتقدمان صوب بابه، وإذا بهما يبصران في إحدى غرف المنزل خلف ستار كبير أسدل على النافذة المفتوحة، شبحي رجل وامرأة يتعانقان، فأرسلت الزوجة المخدوعة صرخة ممزقة وهتفت:

"هاهما، أدريانا وعشيقها، لقد صح ما قاله ابن عمي! فينبغي أن أراها، أن أسبق زوجي إليها، أن أحول بينه وبين ارتكاب جريمة يثأر بها

منها، فإما أن تتخلى عن زوجي، وإما أن أصارحه بالحقيقة وأفضحها!".

وتملصت الزوجة من ذراع الرسام، واستجمعت قواها، وعدت نحو الباب. وفي تلك اللحظة برز ألفريدو من الشارع المواجه، وما إن أبصر زوجته وصديقه حتى ذهل وصاح:

"أنتما هنا؟ لماذا اقتفيتما أثري؟ وماذا جئتما تصنعان؟".

وحدق إليهما فألفاهما صامتين حائرين مرتبكين، فساورته الشكوك بغتة، واستضاء عقله، وانجابت السحب عن بصيرته، فأجال الطرف حوله وهو يرتعد ويفكر. وإذ ذاك لمح الشبحين المتعانقين يتماوجان خلف الستار في ضوء القمر، فجن جنونه، وهم بأن يندفع نحو منزل أدريانا فأسرعت زوجته وارتمت عليه، وتعلقت به وصاحت:

"لا تدخل، إنها في صحبة عشيق لها! علمت الساعة أنها تخونك، فجئت مسرعة لأنقذك. إن كبرياءك قد تذهب بلبك وتوردك مورد التهلكة، فلا تستسلم لحبك وغيرتك، لا تغامر بحياتك من أجل غانية! وعد معنا، عد معنا إلى البيت!".

وتشبثت به، وطفقت تضمه إلى صدرها وتقبل يديه وهي تتوسل وتبكي. فثار ثائره، وزجرها في غلظة وقسوة، وتحول صوب الباب. فلحق به صديقه، وحاول جهده أن يثنيه عن عزمه، ولكن ألفريدو دفعه عنه في عنف، ومرق من الباب، فتبعته زوجته، وانطلق صديقه في أثرها. وصعد الموسيقى الدرج وثبًا، ومضى يدق باب منزل أدريانا وهو شبه تائه

محموم، لا يشعر بمن حوله، ولا يحس إلا بسورة الحقد والكراهية والبغض التي كانت تسوقه، وتضرم في خياله نية القتل وفكرة الانتقام!

وفتح الباب بعد لحظة وبرزت منه أدريانا مستنكرة ومذعورة، فما إن رأت ألفريدو وزوجته وصديقه حتى بهتت وتراجعت، وجمعت أطراف غلالتها على صدرها العاري، ثم قالت في صوت خشن أجش: "ما تعودت أن أستقبل إنسانًا في مثل هذه الساعة، ولا أعتقد أن من اللياقة أن يتزاور الناس بعد منتصف الليل!".

فلم يكترث ألفريدو لكلامها، ونحاها عن طريقه، ودخل البيت متبوعًا بزوجته وصديقه، فاشتد سخط المرأة وصاحت: "اخرجوا!".

فعض ألفريدو على شفتيه وصرخ: "إنه هنا، إنه في مخدعك!".

وانقض عليها كوحش كاسر، وأوشك أن يقبض على عنقها ليخنقها، ولكنها تملصت منه، ووقفت تجاهه منصوبة القامة، عالية الرأس، وقالت في صوت يمج غضبًا وكبرًا وتحديًا:

"أجل، إنه هنا في مخدعي، وأنا أحبه، أتفهم؟! لقد عطفت عليك ولكني لست حمقاء لأكتفي برجل مهدم مثلك!

هو الذي أحبه لا أنت، ولو اجترأت وخطوت إلى المخدع خطوة واحدة، فأنا التي سأردك على أعقابك محطمًا مهزومًا قبل أن تلحق به أي أذى. اخرج!".

فلم يصدق الموسيقى سمعه، وترنح تحت وقع الإهانة، أحس أن

ذهنه يموج، وعقله يختلط، ودمه يغلي، وإرادة الثأر والبطش تسري في عروقه، وتنهب كيانه، وترجف أعصاب يده المتوترة المتحفزة، وتدفعها إلى انتزاع مسدسه وإفراغ ناره في صدر المرأة الغادرة. فاستدار وتحسس جيبه، فلمحته زوجته، وأمسكت به وصرخت، ولكنه غافلها وانتزع مسدسه بالفعل واتجه صوب المرأة، فتطلعت إليه أدريانا شامخة مستكبرة، وقالت وهي تبتسم ابتسامة ظافرة وتومئ بإصبعها إلى مخدعها الذي انبعثت منه في تلك اللحظة حركة عنيفة طارئة: "أتسمع يا ألفريدو؟ لن تصل إليه أبدًا! لقد وثب من النافذة ونجا فاقتلني، اقتلني إذا شئت، ولكن اعلم أني سأموت سعيدة؛ لأني أنقذت الشاب الذي أحب!".

فتمزق قلب الموسيقى، وسحقه الكمد والذل. ولأول مرة في حياته، لأول مرة منذ أن عرف امرأة وأحبها، أحس عذابًا مبرحًا، عذابًا جارفًا، عذابًا مهلكًا ومذيبًا لم يحس به أبدًا.

فنظر إلى نفسه، ونظر إلى المرأة، ثم نظر إلى المسدس الذي كان يتطوح في يده، وأطرق برأسه وتحول، تحول فجأة، تحول بالرغم منه. تحول تحت تأثير قوة لا تقاوم، تحول تحت تأثير سيل دافق من الصور والأفكار والأخيلة، احتل ذهنه، وغمر كيانه، وملك عليه كل عاطفة وكل شعور، فألقى المسدس جانبًا وتقدم، تقدم بخطى وئيدة، تقدم كمن يمشي وهو نائم، واتجه إلى هناك، إلى أقصى البهو، إلى حيث ينهض المعزف الكبير الذي اعتادت أدريانا أن تعزف عليه أدوارها الغنائية للتمرس بها.

وتهاوى ألفريدو على نفسه، وجلس إلى المعزف ثم فتحه في عنف،

وشرع يعزف عليه في لهفة وحماسة وشبه جنون. شرع يعزف القطعة الموسيقية المنشودة، القطعة الموسيقية التي كانت تنقص مسرحيته الأخيرة، القطعة الموسيقية التي انتزعها الآن من قلبه، والتي كان يريد أن يصور فيها عذاب عاشق مخدوع، والتي ظل الأشهر الطوال يعالج وضعها على غير جدوى.

وبدل أن تسمع في الغرفة طلقات رصاص، اندفقت أنغام متأججة كالنار، مدوية كالعاصفة، ممزقة كاليأس، متحشرجة كالموت، رائعة، في صدقها ونبضها الحي روعة تأخذ بمجامع القلوب. فوجم الكل، وأقبلوا على الموسيقى مبهوتين مأخوذين، ولكنه لم يحفل بهم، وانطلق يعزف وإلهامه يحفزه، وفنه يخلبه، حتى كلت يداه واستنفدتا في النهاية عصارة قلبه وعبقريته. فنهض كمخبول ولم يتكلم، لم يتلفت. لم يلقِ على المرأة الغادرة أية نظرة، بل اتجه نحو الباب، ومشي أيضًا كما يمشي النائم، وخرج متبوعًا بزوجته وصديقه وهو يترنح كالشارب الثمل.

وقبل أن يبلغوا البيت، التفت الموسيقى إلى صديقه الرسام وقال:

"أرأيت يا برناردو؟ هذا هو فعل الحب يا صاحبي، ولو أني لم أعشق وأخدع، لما أستطعت أن أحس ألم الخديعة، وأن أبدع هذا الألم في القطعة التي كانت تنقص مسرحيتي! ومع ذلك فأنت على حق. وليس في مقدوري أنا الكهل أن أكرر هذه التجربة، وإلا انسقت إلى ارتكاب جريمة. يجب أن أعيش منذ اليوم لفني فقط، على أن استمد من آلامى وتجاربي وحدها مادة لهذا الفن!".

أما تلك المرأة فلم تعد شيئًا بالنسبة لي! أنا لا أحبها الآن ولا

أبغضها، لقد قتلتها بما أخذته منها، إن حبها ألهمني، ولكن الفن قد شفاني من هذا الحب!".

وتحول نحو زوجته ولاطف خدها بأنامله، ثم تأبط ذراعها وتناول يدها المرتعشة، وانحنى على تلك اليد النزيهة المخلصة الوفية، وضمها إلى صدره ثم قبلها.

الفصل الخامس

ضريبة الوفاء

"لقد كانت صادقة الحب والوفاء، فاقبليني زوجًا لك، أعاونك بقلبي وحبي وندمي ومالي على إحياء ذكرى الموسيقي النابغة مارينو.

وسواء أقبلتني زوجًا أم نبذتني، فأنا لن أحنث بيميني، ولن أعيش إلا لتخليد عبقرية مارينو!".

مارينوفو سكاري

المرأة في حياة مارينو فوسكاري

تألق في إحدى القرى الإيطالية في أوائل القرن السابع عشر نجم موسيقي شعبي فقير يدعى (مارينو فوسكاري). وهذه صورة صادقة لحياته وللمأساة العاطفية التي كشفت عن نبوغه وخلدت ذكراه.

كان يؤلف ألحانه في كل مكان؛ لأنه كان يرى ويحس جمال الطبيعة في كل مكان. كان يقضي معظم نهاره في قاربه الصغير، يتنقل به في أنحاء البحر، ويقضي معظم أوقات فراغه في قريته بين الحقول والوديان. ينصت إلى غمغمة النسيم، وحفيف الشجر وخرير الجدول، وسقوط المطر، وجلجلة الرعد وهبوب الريح. وكان يشرب نفسه جميع هذه الأنغام، ويعيش منها ولها، مندمجًا في جوهرها، هائمًا في سرها،

أسعد ما يكون بتأديتها في ألحانه تأدية مختلجة نابضة صادقة.

ولكن ألحانه كانت عنيفة، وكانت حزينة، فلم ترق لأهل القرية الذين نشؤوا على سماع الأنغام الراقصة الخفيفة المرحة المطربة.

والحق أن (مارينو) كان يلحن لنفسه، ويبدع الأنغام لذاته، ولا ينشد أبدًا إعجاب الناس مكتفيًا بأن يكون سعيدًا، وأن يشعر بأنه قد فر من حياته، وخرج من عزلته، ونفس عن صدره، واستطاع بفضل فنه ونبوغه أن يتصل اتصالًا وثيقًا بتلك الطبيعة الرائعة التي كان يعبدها، ويرى فيها ملاذه الأول والأخير.

كانت مهنته صيد السمك، وكان فقيرًا بائسًا. ومع ذلك فالبؤس لم يؤثر في طبعه، ولم يفسد خلقه، ولم يخمد في نفسه شعلة الإيمان، ونور الأمل، وروح القناعة والصفاء. على أن شيئًا واحدًا كان يؤلمه، إنسانًا واحدًا كان يعذبه وهذا الإنسان هو زميله وصديقه وغريمه الموسيقي أنطونيو.

كان أنطونيو صياد سمك أيضًا، وملحنًا كمارينو ولكنه كان ثريًا، أما ألحانه فكانت مرحة خفيفة تافهة، تجري على اللسان، ولا ينفك يغنيها ويرددها أهل القرية جميعًا.

هذه الشهرة المستمدة منصناعة غثة رخيصة، كانت تحز في صدر مارينو، وتشعره بجهل الجماهير وجحودها، وتلقي في روعه أنه لن يقوى على إثبات شخصيته، ولن يقوى على توكيد نبوغه، ولن يعيش إلا في ظل الصمت والبؤس والانطواء والخمول.

تلك كانت مأساته الذهنية، أما مأساته العاطفية فكانت أعمق وأفجع بكثير.

وها هو ذا، وقد احتلت فكره مأساته الثانية ينعم النظر فيها، ويقلبها على مختلف وجوهها، وعينه الساخطة المستنكرة، لا تكاد تحدق إلى البحر لحظة حتى تتبرم وتتململ، وتمتد حانقة إلى الفضاء البعيد.

وكانت السماء في ذلك اليوم ملبدة بالغيوم، وصفحة البحر كمرآة مغبرة، وقوارب الصيد متناثرة عليها تتثنى وترقص كلما عصفت بها الريح.

وكان مارينو ينهب الفضاء ببصره، ويتأمل الأفق المترامي، ثم يعض على شفتيه، ويطرق برأسه، وينظر إلى قاربه الصغير، والدمع يوشك أن يطفر من عينيه.

كان يفكر في تيريزا، في الفتاة الشائقة الساحرة، ذات العينين الزرقاوين الناعستين، والشعر المموج الذهبي، بنت الشيخ جوليانو الفلاح الأجير.

كان يحبها أكثر من شبابه، وأكثر من حياته؛ لأنه كان يحبها في فنه الذي يمثل له أجمل صور الشباب وأنضر صور الحياة.

وكانت تيريزا تحبه، وتعجب بجماله وفنه، وتتمنى على القدر لو استطاعت أن تصبح زوجة له، بيد أن والدها الشيخ كان يجفوه، وكان يعيره بفقره، ولا ينفك يصارحه بأن ابنته لن تكون أبدًا له!. وهكذا أدرك

مارينو أن السعادة قد تشترى بالمال، فأراد أن يجرب حظه عساه أن يصبح في يوم من الأيام غنيًا. فحاول جهده أن يقترض مبلغًا كبيرًا من بعض وجهاء القرية، ولكنهم أعرضوا عنه ولم يثقوا فيه، فاضطر –وملء نفسه اللوعة والحسرة– أن يبسط يده إلى صديقه وغريمه، وأن يقترض المبلغ من الصياد الموسيقي الثري أنطونيو. وما إن أصبح المال في حوزته حتى أسرع واشترى شبكة صيد كبيرة، وقاربًا صغيرًا جميلًا أطلق عليه اسم تيريزا.

وشرع يجوب أنحاء البحر، ويلقي الشبكة في أطوائه، ويجاهد ليقتنص الحظ من جوف الماء. ولكن البحر كان يعانده، والحظ كان يكايده، والشبكة الملعونة كانت تسخر منه ولا تقذف إليه من أعماق اليم إلا بأسماك صغيرة تلمع كاللآلئ الزائفة التي تبهر العيون دون أن تساوي في الواقع شيئًا.

وانقضت أشهر طويلة، ولم يستطع مارينو أن يفي بما عليه لصديقه من دين. يئس من وفاء دين أنطونيو كما يئس كل اليأس من الظفر بتيريزا. فاسودت الدنيا في عينيه، والتهبت حسرته، واتقد حبه، وازداد على مر الأيام تأججًا واشتعالًا.

وكان أنطونيو يغافله كل يوم تقريبًا ويلتقي بتريزا. وكان فتى مستهترًا عربيدًا مولعًا بالخمر والنساء، وكان يحب تيريزا وكانت تكرهه، كان يخطب ودها وكانت تخشاه، كان يسعى إليها، وكانت تنصرف عنه وتروغ منه، فلما طال انتظارها ويئست هي الأخرى من نجاح مارينو، وأبصرت أنطونيو يلاحقها

ويطاردها ويتشبث بها ويغدق عليها فيضًا من الهدايا، تراخت فجأة وضعفت، وانصرفت عن الفقير إلى الغني، وزهدت في الحب وآثرت المال.

وبدأ مارينو يشعر بتحول المرأة وخيانةالصديق. ولكن هذا التحول المنكر المقرون بالخيانة الوضيعة لم يعذبه بقدر ما عذبه شعور المهانة والذل. كان مدينًا لأنطونيو، وكان أنطونيو يتعالى عليه، ويشمت فيه، ويسخر من نكد طالعه، ولا يفتأ يذكره بالدين. وكان مارينو يحس العجز الممزق أمام أنطونيو، والعار الفظيع أمام تيريزا. كاني يحس أنه ما دام فقيرًا، ومادام مدينًا، وما دام فاشلًا، فلا حق له في الكرامة، ولا حق له في الحياة، ولا حق له في تيريزا.

ولقد استبد به هذا الإحساس بالأمس، عندما أبصر الفتاة تخرج في شوارع القرية متأبطة لأول مرة ذراع أنطونيو.

ثار ثائره، وجن جنونه، وأيقن أنه سيفقدها، فهام على وجهه الليل بطوله، ومضى يضرب في أنحاء القرية، ساهمًا شاردًا مخبولًا، لا يستطيع أن يفرج عن نفسه إلا في النغم العنيف الحزين الشجي، الذي تجمع بغتة في أطواء فكره وقلبه، ثم وثب من أعماق كيانه، واندفق من جوهر روحه، حاملًا في سيله الجارف حبه التاعس وعذابه الممض الكظيم.

وظل يضع اللحن تلو اللحن فيشبه حمى، ولكن سورة الخلق والإبداع لم تنقع غلته ولم تطفئ حرقته. فارتد إلى سهومه ووجومه، وعاد يلقي بشبكته في البحر موزعًا لقلبينا لتلهف على الأمل واليقين منا ليأس.

وفجأة، وهو في غمرة بؤسه، ولوعة اضطرابه وحيرته وشقائه، أشفق عليه القدر، وهداه إلى بصيص خافت من نور، ثم بسط أمام عينيه الذاهلتين شاطيء النجاة!..

وها هو ذا يتأمل قاربه الصغير، ويسرح الطرف في البحر الشاسع، ويفكر: أيقبل أم يرفض؟ أيجب أن يتعلق بالحياة فيشقى، أم يجب أن يغامر بها كي يسعد ويعيش؟ أيجب أن يتراجع أم يقدم؟ أن يجبن أم يتشجع؟ كلا، يجب أن يقدم! يجب أن يقبل! يجب أن يغامر! يجب أن يقهر حظه ويقهر أنطونيو، ويفوز بتيريزا!

واستحوذت عليه الفكرة، وتمكنت منه فلم يتردد، وأرسل نفسًا مستطيلًا ثم نهض من فوره، واستجمع قواه، ودفع بقاربه الصغير، واتجه به صوب الميناء.

وكانت قد رست في الميناء سفينة كبيرة، فصعد إليها مارينو، وطلب مقابلة قبطانها. وما إن دخل على القبطان حتى ابتدره قائلًا: "لقد جئت يا سيدي تلبية لدعوتكم! طالعت الإعلان الذي نشرتموه بالأمس في الصحف، فإذا لم يكن قد تقدم إليكم أحد غيري، فأنا متأهب للقيام بكل ما تطلبون!".

فرمقه القبطان بنظرة فاحصة، وقال: "لم يتقدم إلينا أحد بعد، ولكن المهمة شاقة، ونحن في حاجة إلى رجل مغامر قوي".

فهتف مارينو: "إني هذا الرجل! فتكلم يا سيدي، فأنا رهن

إشارتك! ما نوع هذه المهمة ومتى يجب أن أقوم بها؟".

فتفرس فيه القبطان فترة ثم قال: "تعلم أن بعض رجال العصابات قد أثاروا اضطرابات خطيرة في المنطقة الواقعة خلف الشاطيء المجاور، وتعلم أن الحكومة قد أرسلت سفينتين حربيتين لإقرار النظام، سفينتي والسفينة الأخرى التي رابطت منذ أيام في الشاطئ المجاور والتي أوشك أن يحاصرها رجال العصابات. فهذه السفينة يجب أن أخف أنا على الفور لنجدتها، ويجب أن أعاون قبطانها معاونة فعالة في قمع الاضطرابات. ولكن السماء ملبدة بالغيوم، والعاصفة لا بد أن تهب بعد ساعة على الأكثر، وليس في مقدوري أن أغامر بسفينتي وسط العاصفة وأعرضها للهلاك. فالواجب إذن يقتضيني أن أسرع وأبعث إلى زميلي قبطان السفينة الثانية برسالة مستعجلة وخطيرة أعين له فيها التدابير الجديدة التي رسمتها الحكومة لمكافحة الاضطرابات، ولقد فكرت في أن أعهد بهذه المهمة إلى أحد رجالي، ولكنهم كما تعلم بحارة وجنود مرتزقة يحترفون صناعة الحرب فقط، ويعتقدون أن من العار عليهم أن يموتوا إلا وهم يقاتلون. فليس فيهم من يقبل أن يكون فدائيًا وأن يغامر بحياته على هذه الصورة؛ لهذا أعلنت عن حاجتي إلى رجل غريب! فهل يمكن أن تكون أنت هذا الرجل؟ وهل أنت مستعد لمواجهة العاصفة، ومجابهة الخطر، والمغامرة بحياتك؟

فلم يرتجف مارينو ولم يتأثر، بل قال في هدوء: "أين هي الرسالة؟".

فاستطرد القبطان: "عليك أن تسلمها إلى زميلي قبطان السفينة الأخرى، كما عليك أن تسلمه نسخة من الصحيفة التي نشرت الإعلان وذكرت المكافأة. ومتى تسلم القبطان الرسالة وقرأ الإعلان، سيمنحك من فوره المبلغ الكبير المقرر لمن يتولى هذه المهمة الشاقة. أكبر ظني أنك ستصل إلى الشاطئ الآخر سالمًا، وتظفر بالمبلغ الكبير. ولكن المهم هو أن تعود أيضًا سالمًا وتنجو من العاصفة التي لا بد أن تهب بعد ساعة أو أقل! فهل أنت مستعد؟ فكر مليًا قبل أن تعزم وتتورط!".

فرد الشاب في ثبات: "أين هي الرسالة؟".

فناوله القيطان الرسالة، وهو ينظر إليه نظرة ملؤها التقدير والإعجاب، ثم بسط له يده مصافحًا وقال: "حظًا سعيدًا يا بني، وإلى اللقاء!".

فدس مارينو الرسالة في جيب صداره، وخرج من السفينة منصوب القامة، ملتمع العينين، مضموم القبضتين، يهتف في نفسه وكأنه يصرخ: "سأظفر بالمال، وأقهر العاصفة، وأطرد غريمي وأفوز بتيريزا!".

وطفق يجدف كمخبول حتى بلغ الشاطىء، ولما التقى برفاقه الصيادين صارحهم بما اعتزم عليه، فبهتوا وروعوا، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه، ولكنه لم يحفل بهم، وشرع يهيىء قاربه وهو يضحك ويغني.

ومن اتقاد أمله، وجلجلة فرحه، ونشوة ابتهاجه، انبعثت من صدره أغنية جديدة رائعة، وضعها على الفور، ونسق في لحظة أنغامها، وابتكر ألفاظها، وأودع فيها خلاصة حبه، وعصارة إيمانه بالنصر العظيم المكفول.

وراح الصيادون يرددون الأغنية، فازداد مارينو حماسة، وازداد شجاعة وعزمًا، ثم وثب إلى القارب فجأة وهو يغني، ثم لوح بذراعه يودع رفاقه، ويقول لهم: "كان جل ما أتمنى هو أن أرى تيريزا قبل رحيلي، ولكني أريد أن أسبق العاصفة وأتغلب عليها. فقولوا لتيريزا أني غامرت بحياتي من أجلها، وأني لا بد أن أقهر هذا البحر العاصف الغادر وأفوز بها!".

وولى وجهه شطر الشاطىء الآخر، وضرب الماء بمجدافيه، وانطلق يلوح بذراعه ويغني.

وفى مثل لمح الطرف، احلولك الجو واسودت السماء، ثم صفرت الريح، وماجت القوارب، واستحال البحر شيئًا فشيئًا إلى وحش هائل مسعور، أما القارب الصغير فقد ظل يخترق الأمواج المتلاطمة حتى غاب في لجة البحر الجائش، ولاح أشبه بنقطة سوداء تتراقص في الأفق البعيد.

وأسرع الصيادون ونقلوا الخبر إلى أنطونيو وتيريزا، فذهلت الفتاة وأعجبت، وأكبرت من مارينو أن يحبها ويخلص لها ويستمسك بها إلى حد المغامرة بشبابه وحياته من أجلها، فأشفقت عليه من أعماق قلبها، واستيقظ فجأة حبها له، وتمنت من صميم قلبها لو استطاع البطل أن يظفر بالمال ويعود إليها سالمًا.

وارتعدت فرائص أنطونيو وخشى العاقبة، أيقن أن مارينو لو عاد منصورًا فلا بد أن يقهره ويسلب منه قلب تيريزا، فحزم أمره، وتقدم إلى الفلاح الأجير والد الفتاة وطلب منه يد ابنته! ولكن تيريزا ماطلت وراوغت، وأبت ألا أن تنتظر.

وانتظر الجميع على أحر من الجمر، ولكن مارينو لم يعد، انقضى الليل بطوله ولم يعد، وانقضى اليوم التالي بطوله أيضًا ولم يعد. فانطلق الصيادون يجوبون أطراف البحر باحثين عنه، ولكنهم لم يعثروا إلا على القارب الصغير، يترنح وحيدًا خائرًا يائسًا بين الأمواج.

وعندئذ، وخشية أن يظهر مارينو في اليوم الثالث فجأة ومعه المال، وحول شخصه هالة من روعة المجد والتضحية، كشر انطونيو عن أنيابه وأصر على أن يقترن بتيريزا في اليوم نفسه وإلا تخلى عنها وقطع كل صلة له بها.

وروع الفلاح الأجير، واستهول الأمر وعز عليه أن تفقد ابنته زوجًا ثريًا لم يكن ليحلم به، فانتهرها وزجرها وضيق عليها الخناق، فثبت الفتاة وقاومت وأرادت أن تنتظر أيضًا، ولكن والدها وقد عيل صبره، هددها بالضرب والطرد، فلم تستطع إلا أن تمتثل لأمره وهي تبكي بكاءً يفتت الأكباد.

وزين الصيادون قواربهم بالمصابيح والأعلام احتفالًا بالعرس، وبرزت نساؤهم وبناتهم في أبهى الحلل، وانسابت القوارب في اتجاه الشاطىء تتهادى، وعليها الرجال والنساء والأطفال يغنون ويهتفون.

وراق لنفر من الصيادين أصدقاء مارينو أن يغنوا بعض ألحانه، ولكن أنطونيو وقد اضطرمت في صدره عوامل الحقد ولعبت برأسه نشوة الزهو والنصر، أبى في يوم عرسه إلا أن يغني الجميع ألحانه هو، فطفق يبذر النقود على الصيادين، فتألبوا عليه بقواربهم، والتقطوا النقود وهم يهللون، وراحوا يغنون ألحانه التافهة الرخيصة، وتيريزا تنظر إليهم نظرة ملؤها الزراية

والتحقير، وقد انقبض قلبها، وانسحق حلمها، وباتت أشبه بفريسة خانتها روح المجالدة والكفاح، فوقعت في شبكة الصياد خائرة عاجزة متخبطة.

وارتفعت في الجو أغاني أنطونيو، وشوهت تفاهتها جمال البحر، ولكن الصيادين المتكالبين على المال مضوا في إنشادها. فأدركت تيريزا أنهم قد باعوا أنفسهم بالمال مثلها، فثار ثائرها، وهمت بأن تصارحهم جميعًا باحتقارها وبغضها، ثم تلقي بنفسها في البحر وتستريح، ولكن الأمل العنيد في عودة مارينو كان أقوى منها، فرفعت رأسها شامخًا متحديًا، ولاذت بالصمت والصبر، وفي نيتها أن تسلم اليوم نفسها لحكم القدر الغاشم في انتظار معجزة خارقة قد يأتي بها الغد.

وكان من عادة الصيادين في تلك القرية الاحتفال بأعراسهم وفق تقليد خاص، فكان العريس يخرج إلى الشاطىء بعروسه قبيل موعد الإكليل، ثم يهبط بها أحد القوارب، ثم يطلب إليها أن تلقي بيدها الشبكة في البحر. فإذا أصابت الشبكة عددًا وافرًا من الأسماك كان حظ العروسين سعيدًا، وإلا فيجب أن يقضيا بعد الزواج أسبوعًا كاملًا في الصوم والصلاة كي يهبهما الله حياة موفقة وذرية صالحة وعمرًا مديدًا.

فلما دنت هذه اللحظة المأمولة، تقدم أنطونيو ولوح بذراعه هاتفًا باسم تيريزا، ثم التفت إلى أحد الأطفال الذين كانوا يحملون سلال الورد، ورفعه بين ذراعيه وقبله، ثم اختطف من سلته وردة ألقى بها في الفضاء، فسقطت في قارب كبير وهو القارب الذي يجب أن يهبط إليه العروسان وتلقي منه تيريزا الشبكة في البحر.

وتعالى الهتاف قاصفًا مدويًا، ثم تلاه نشيد ديني رائع ردده الجميع بينما كان أنطونيو يأخذ بيد عروسه، ويهبط بها إلى جوف القارب الكبير.

وأمسك أنطونيو بالشبكة ثم عانق تيريزا وهي متجهمة صامتة، ثم انحنى أمامها وسلمها مقبض الشبكة، وصاح بها الصيحة التقليدية وهو يبتسم: "كل كنوز البحر ملكك يا عروس البحر الساحرة!".

فغالبت تيريزا عواطفها جهدها، وضمت أصابعها على مقبض الشبكة، ثم طوحت بها يمنة ويسرة ثم أطلقتها دفعة واحدة، وألقت بها في البحر.

وسكنت حركة الصيادين، وهدأ رقص القوارب، واحتبست الأنفاس، واشرأبت الأعناق، وشاع في الجو صمت زافر عميق، وانحنت تيريزا وجعلت تجذب الشبكة بملء قواها، ولكن الصيد في جوفها كان ثقيلًا فلم تستطع واستنجدت بعريسها، فضج الجميع بالهتاف، وتزاحم الصيادون حول القارب وشرعوا يهتفون: "صيد عظيم! اجذب الشبكة يا أنطونيو".

فشمر الشاب عن ساعديه، وطفق يجذب الشبكة وهو يضحك، فمال القارب وأوشك أن يسقط بمن فيه، ولكن أنطونيو أسرع وانتزع الشبكة في عنف وألقى بها في القارب.

فصاح الصيادون يتبعونه النظر: "الصيد للعروس! لا تلمس الشبكة".

فتقدمت تيريزا، وجثت على ركبتيها، ولكنها لم تكد تمد يدها المرتجفة وتطل برأسها لترى الصيد حتى انخلع قلبها، واندلعت عيناها، فتراجعت

مأخوذة مسلوبة، وظلت تحدق إلى الشبكة وقد جمد الدم في عروقها!

أبصرت حبيبها نفسه، حبيبها مارينو، جثة هامدة تتقلب بين الحبال، جاحظة العينين، مصفرة الشفتين، مضمومة اليد اليمنى على كراسة كبيرة، كانت لا تفارق الصياد الموسيقي، وكان يدون فيها ألحانه، ومضمومة اليد اليسرى على رزمة من الأوراق المالية كانت هي المكافأة التى أعلن عنها القبطان، والتي فاز بها العاشق البطل على غير جدوى!

عندئذ تاه فكر تيريزا، وسحقها الرعب واليأس، فصرخت من أعماق قلبها المتفطر: "مات مارينو من أجلي! مات من أجلي".

وتحولت صوب والدها وصاحت: "هذا العرس لن يتم! لن أكون أبدًا زوجة أنطونيو!".

فبهت الصيادون، وذهل الفلاح الأجير لحظة، ثم عصفت به نوبة غضب هائلة، فانقض على ابنته، وأمسك بها من ذراعها، وجذبها من القارب وهو يصرخ:

"يجب أن يتم الإكليل، الكهنة في انتظارنا، ولا بد أن نذهب إلى الكنيسة!".

فتملصت الفتاة من والدها جهدها، فأحنقه عصيانها، فتمكن منها، وأبى إلا أن يهبط بها إلى القارب عنوة، فجن جنونها وغافلته وهو يهدر، واستجمعت قواها، وحاولت أن تلقي بنفسها في البحر، ولكن أنطونيو أسرع إليها، واحتواها بين ذراعيه، وطفق يقبل يديها، ويلثم أطراف ثوبها، ويوشك

أن يجثو عند قدميها وهو يصيح: "لن أجبرك على ما تكرهين يا تيريزا".

فهدأت ثورة الفتاة وتطلعت إليه، فطوقها بذراعه ثم رفع رأسه ونظر إلى الجمع المحتشد، وقال في صوت ثابت واضح جهير: "لقد مات مارينو بسببي، وما دمت أنا المسؤول عن موته فيجب أن أكفر عن ذنبي بأن أبعثه من جديد إلى عالم الأحياء! إنه موسيقي نابغ، أما أنا فملحن تافه غير موهوب. ولكنى رجل ثري، وفي وسعي أن أستخدم مالي لإنقاذ عبقرية صديقي، وإذاعة اسمه، ونشر ألحانه، وتخليد ذكراه".

وانحنى على الجثة، وانتزع الكراسة الكبيرة التى كان يدون فيها مارينو ألحانه، واستطرد متجهًا نحو الفتاة:

"اسمعي يا تيريزا! أنت تحبين مارينو، ولكن أية قيمة لحب عقيم لا يخدم الذكرى؟! لقد كنت صادقة الحب والوفاء، فاقبليني زوجًا لك، أعاونك بقلبي وحبي وندمي ومالي على إحياء ذكرى الموسيقى النابغة مارينو. الكلمة الآن لك، وسواء أقبلتني زوجًا أم نبذتني، فأنا لن أحنث بيميني، ولن أعيش إلا لتخليد عبقرية مارينو!".

فأجفلت الفتاة ولم تصدق سمعها، وتحولت إلى أنطونيو مبهوتة مأخوذة، فألفته وقد أضفت عليه لأول مرة عواطف النخوة والشهامة والرجولة حلة رائعة من النبل والشرف، يبسط إليها يديها مستجديًا، وينظر إليها نظرات ملؤها الحب والإعجاب والتقديس. فتأملته لحظة، وأيقنت من صدقه وأكبرته. فلم يطاوعها ضميرها على أن ترده خائبًا فتنكر إخلاصه، وتجحد فضله، وتخون ذكرى مارينو، فتقدمت خطوة وهي ترتجف، وطاف بوجهها

ظل ابتسامة راضية. فاستشعر أنطونيو تحولها، فأفقده الفرح صوابه، فأرسل من أعماق قلبه صرخة مدوية، وأسرع وتلقى الفتاة بين ذراعيه.

وهتف الصيادون مهللين، فلم يمهلهم أنطونيو، وأمرهم بأن يغنوا جميعًا لحنًا معينًا من روائع ألحان مارينو.

وانطلق هو يغني وتبعه الصيادون. فجاشت نفس تيريزا، ونظرت إلى عريسها شاكرة معجبة، ولم تستطع ضبط شعورها، فانفجرت عواطفها، وترقرقت من عينيها الدموع.

وكان ذلك اليوم مشهودًا في كنيسة القرية؛ لأن الكهنة الذين قاموا في وقت واحد بعقد إكليل والصلاة على روح ميت ما كادوا يفرغون من تأدية نشيد الموتى على جثة مارينو، حتى جاوبتهم أصوات الصيادين بالنشيد الرائع الذي كان قد وضعه الفقيد قبيل رحلته المجيدة، والذي تعالى في أرجاء الكنيسة مدويًا، فكان نشيد بعث وفرح وقوة وانتصارًا.

الفصل السادس

مأساة في البندقية

"وعاد الشاعر إلى باريس يحمل شخصية رجل ناضج مكتمل، ولكن قلبه المشغوف بحب جورج ساند كان قد مات. مات لتبعث عذاباته شعرًا إنسانيًا خالدًا على مر السنين والأجيال!".

الشاعر الفرنسي موسيه

كان المطر يهطل، والريح تدوي، وغيوم السماء تتكاثف تارة وتومض أخرى، فتلقي الرعب في النفس وتدفع السابلة إلى الفرار. وكان الشاعر العظيم الفريد دي موسيه يحث خطاه برغم مرضه، وبرغم وقدات الحمى التي تسري في عروقه، ناشرًا مظلته، وأسنانه تصطك، وبدنه يرتجف، ونظراته المتلهفة الزائغة متجهة صوب دير صغير قائم في زاوية الطريق.

وكانت مدينة البندقية قد غابت في أحشاء الظلام، وانطفأت شعلة حياتها، وخيم عليها صمت رهيب لا تعكره غير جلجلة الرعد، وخشخشة المطر وهو يضرب النوافذ والشرفات، ويتساقط في عنف على الأرض.

وأحس موسيه أنه وحيد في هذا العالم الثائر المدلهم، فاختلج اختلاجًا عنيفًا وبكى، ولكنه استجمع قوى إرادته، وألهب بها حيوية أعصابه، واندفع نحو باب الدير وطرقه وهو يلهث.

وفتح الباب راهب مديد القامة صارم الوجه، وأومأ إلى الشاعر بالدخول. فانطلق الشاب في الدهليز الطويل، وتحول إلى غرفة رئيس الدير، ومكث في الغرفة ينتظر الرئيس وهو يرتعد والعرق يتصبب منه.

وتلفت حوله شبه مذهول، فأبصر الرهبان، في بهو الدير، يروحون ويغدون منكسي الرؤوس، صامتين ساكنين تائهين، وبيد كل منهم كتاب صلاة يطالعه في تأمل وخشوع وهو يدمدم.

وأحس الشاعر أن هؤلاء الناس قد ودعوا الدنيا إلى غير رجعة، وأن الدنيا بأسرها قد ودعتهم هي أيضًا، وأن الحياة بجمالها الرائع وسحرها الخلاب لا يمكن أن تنفذ إليهم، ولا يمكن أن تؤثر فيهم، ولا يمكن أن تحول عقولهم وقلوبهم عن التحديق الدائم إلى وجه الله.

وتصور الشاعر ما هو مقبل عليه فانخلع فؤاده رعبًا وتزعزعت نفسه من الأعماق، كيف؟! أفي مقدوره هو أن يودع الحياة مثلهم؟ أفي وسعه أن يقضي العمر كله في هذا المكان الصامت الخانق المكفهر؟ أفي استطاعته أن ينسى الدنيا ونعيمها، وينكر نفسه، ويقهر شهواته، ويعيش من أجل الله فقط؟!

كلا، هذا محال! إن الحياة تغلي في دمه، وتنبض في عروقه، وتصب في روحه وجسده سيلًا من نار.

ما كان ليتصور أن التضحية هائلة إلى هذا الحد، ما كان ليعتقد أن دعوة الحياة أقوى في نفسه ألف مرة من دعوة اليأس! لا، محال! لن

يكون في وسعه أن يصبح راهبًا؟ هذا وهم! هذا جنون! إنه شاعر، والشاعر ملك الحياة، فيجب على موسيه أن ينهض، أن يسرع، أن يفر من هنا، أن يخرج إلى فسحات الحياة الرحبة قبل أن يضعف، وقبل أن يجبن، وقبل أن تغلق عليه أبواب الدير إلى الأبد! وتمكن منه القلق والذعر، فلم يتردد. وبدل أن يظل في انتظار الرئيس، تحامل على نفسه، وخرج من الغرفة لفوره، واجتاز الدهليز الطويل، وأومأ بدوره إلى الراهب البواب أن يفتح له الباب، فألقى عليه الراهب نظرة احتقار قاسية، وأجابه إلى سؤاله غير مكترث.

وما كاد موسيه يبصر الشارع ويسمع دوي الرعد وصفير الريح حتى تنفس ملء رئتيه، وصرخ صرخة فرح وخوف. فرح بخلاصة من الأسر الذي كان ينتظره، وخوف من العذاب الذي يتربص الآن به، ويسمم جو الحرية الرائع الذي ارتد إليه!

ذلك هو الحادث العجيب الذي وقع لموسيه في مدينة البندقية، ولكن كيف وقع ذلك الحادث؟ ولماذا وقع؟ وما هي العوامل التي دفعت بالشاعر الذي كان يعبد الحياة والحرية إلى التفكير في توديع العالم ودخول الدير؟

الواقع أن موسيه كان يجتاز أقوى وأعنف حب وغيرة صادفته في حياته، وهذه الأزمة العاطفية الفريدة في نوعها هي التي سنحاول كشف الستار عنها؛ لأنها قتلت موسيه كإنسان، وأحيته إلى الأبد كشاعر من أعظم شعراء فرنسا بل العالم.

ظل ألفريد دي موسيه يحلم طوال أيام حداثته بحب امرأة نادرة،

تجمع إلى فتنة البدن جمال العقل والروح. ولقد كان شابًا حاد المزاج، سريع التحول، متوثب الأعصاب، خيالي النظرة إلى المرأة والحياة. قضى ردحًا طويلًا من شبابه الأول مطلقًا العنان لغرائزه، يلهو ويمرح في صحبة نساء عابثات مستهترات، أمتعنه بكل ما في الحياة من ملاذّ حسية وضيعة، سرعان ما تبددت وخلفت في قلبه فراغًا عميقًا، ابتلاه بشبه أسى ممضٍ أليم، زين له العزلة، وباعد بينه وبين المجتمع والناس.

والحق أن إمعان ألفريد دي موسيه في معاشرة الغواني، زاده رغبة في المرأة الكاملة المنشودة التي كان خيالها يطوف بذهنه، ويحتل عقله، ويعكر عليه صفو لياليه، ويفعم نفسه بضرب من السوداء الحالمة الممزوجة بالضجر والتبرم والحسرة.

كان يخشى أن يموت قبل أن يشعر بعاطفة حب صادقة، كان يخاف أن يصرعه القدر وهو لم يعرف من الدنيا غير اللذة الغادرة التي تزول بزوال الساعة. وكل شعره في تلك الفترة من حياته رجع صدى نفسه القلقة في بحثها الطويل عن العاطفة المشبوبة الخالدة.

هذا السعي المطرد وراء الحب أفاض على قصائده حلة ساحرة غريبة، أشاعت فيها نزعة من السذاجة الفاتنة والبراءة الناضرة والطفولة الخلابة، أكسبتها شهرة واسعة وأجرتها على كل فم وكل لسان.

عندئذ تنبهت الكاتبة الروائية النابغة جورج ساند إلى شخصية الشاعر ألفريد دي موسيه وأعجبت بها. راعتها منه سذاجته، وصدق إيمانه بأحلام الحب، وتلهفه على امرأة مثالية، يتخذ منها وحيًا لعقله وعروسًا لشعره، فأحبته.

أحبت فيه الفتى الجريء، والعاشق الطموح، والشاعر الخيالي الذي اعتقدت أنه يريد أن يطوع الحياة لخياله، ويبدع من هذا الخيال مثلًا واقعيًا أعلى.

وكانت امرأة ناضجة الأنوثة، وافرة قوى العقل، مضطرمة الحواس، جليدة الأعصاب، حديدية الإرادة، عاشت وأحبت وخبرت الرجال، وعرفت منهم عددًا كبيرًا من صفوة عظماء عصرها ونخبة أفذاذه ونوابغه.

والواقع أن جورج ساند كانت قد مجت اللذة هي الأخرى، وتاقت إلى الحب. إلى حب صادق ينبع من قلب بريء، فتوددت لموسيه، وتقربت إليه، وافتنت في استمالته وإغرائه.

فبهت الشاب وازدهى، وتملكته النشوة الكبرى، نشوة العابد إذ يستفيق من تأملاته فيبصر معبوده ماثلًا أمامه، يتألق حسنًا، ويختلج حركة وحياة.

شعر موسيه أن حلمه قد تحقق، وأن المرأة المنشودة الجامعة إلى فتنة البدن جمال العقل، أصبحت له وحده ينعم بها، ويستطيع أن يستلهمها أروع القصص وأبدع الأشعار، فأسلم نفسه لها، وانقاد لحبها، وودع العالم وتبعها، أعمق ما يكون إيمانًا بأن حبهما أجمل وأكمل وأقوى من الحياة.

وأرادت جورج ساند ألا ينازعها في حبيبها إنسان، وأراد موسيه أن يباعد بينها وبين مفاتن باريس، وأن ينتزعها من أيدي المعجبين بها، وأن يطمئن في العزلة إلى حبه الخارق العظيم. فاتفق مع حبيبته على هجر العاصمة الفرنسية

والسفر إلى إيطاليا، والاستقرار في البندقية مدينة الحلم والهوى.

وهنالك، في تلك الوحدة الزاخرة بالحب، التواقة إلى الثقة والأمل والنعيم، نشب الصراع الهائل بين العاشقين العبقريين.

وكان لب هذا الصراع هو وضع معكوس لقانون الطبيعة، هو ضعف الرجل وقوة المرأة، هو خيال الرجل وواقعية المرأة، هو أنوثة ألفريد دي موسيه ورجولة جورج ساند.

كانت المرأة تعيش بالعقل والرجل يعيش بالعاطفة، كانت المرأة تقدس الفكر والرجل يعبد الأحلام.

كان موسيه يحب الناس، وكانت جورج ساند تكرههم. كان الشاعر مولعًا بالحياة في المجتمعات والأندية، وكانت القصصية النابغة تهوى التأمل والعزلة.

كان الرجل كسولًا، يقضي سحابة نهاره منتزهًا في القوارب، وكانت المرأة جادة عاملة تشتغل أكثر من أربعة عشر ساعة في اليوم، ولا تغادر مكتبها إلا لتخرج باحثة عن حبيبها، فلا تلتقي به إلا في الحانات والمراقص الليلية سكران معربدًا.

وكان موسيه أهوج طائشًا نزقًا، يعد بشيء ثم ينساه، يقتنع بفكرة ثم يتأثر بنقيضها، يهتم بشخص ثم يعرض عنه بغتة، وفي غير أدب، يظهر إعجابه بحبيبته ثم يطري أمامها محاسن نساء البندقية الجميلات. وهكذا كان يعيش في الخارج ساعات، يتجول في أنحاء المدينة، ويغشى أحياءها الشعبية،

مصطحبًا في جولاته رهطًا من البحارة، وفئة من الموسيقيين، وجمعًا مشاغبًا من المترفين العاطلين، وطائفة مختارة من بنات الهوى.

والغريب في أمر ألفريد دي موسيه أن القوة التي حفزته إلى الإسراف في اللهو والمرح كانت هي نفسها قوة الحب! كان لفرط حبه لجورج ساند يود لو استطاع أن يعانق العالم!

كان حبه الشديد يغريه بالفرح، ويدفعه إلى السرور، ويدعوه إلى التسامح وعدم الاكتراث، ويضاعف أخلاقه تقلبًا وتلونًا، ويزيدها رعونة وطيشًا، ويجعل منه شبه طفل فاز بما يشتهي فهو يطرب ويهلل ويملأ العالم صياحًا وضجيجًا.

وأما جورج ساند فكانت هادئة النفس، صافية العقل، متزنة الأعصاب، تنظر إلى شاعرها نظرة الملاحظ الصارم، فتستجلي بواطن شخصيته، وتقف على حقيقة أهوائه، وتعد عليه هفواته، وتشعر على الرغم منها بعظم الفارق بين خيالها عنه وبين ما هو عليه في الواقع.

وأعجب من كل هذا أن ألفريد دي موسيه ظل يمرح ويعربد دون أن تخطر على باله لحظة واحدة فكرة خيانة جورج ساند!

أجل، كان يحيا بين أجمل نساء البندقية، ولكنه لم يرَ فيهن من تستحق قبلة أو نظرة.

لم يتطلع إلى امرأة غير حبيبته، ولم يسمح لغرائزه بتلويث ضميره، وكان في لهوه مثال الطهر والعفة، مثال الأمانة والوفاء، مثال الترفع عن كل شبهة من خيانة، وكل ميل –ولو خفي– إلى الخديعة والغدر.

ولكن المرأة كانت تنظر إلى الظاهر أكثر مما تنظر إلى الباطن، كانت تنظر إلى السلوك لا إلى العاطفة فقط.

كانت تحكم على العمل لا على النية الطيبة، ولا على القلب الوفي ولا على الضمير الطاهر.

وأهم ما كان ينفرها ويحفظها فوق عبث الشاعر ولهوه، هو نزقه وغروره، وتلونه وتقلبه، وذلك الطيش المتأصل العجيب الذي كان يبعث الناس على الهزء به والسخرية منه.

كل هذه الظواهر الضعيفة كانت في عرف جورج ساند من خصائص الأنوثة، وكانت هي تكره أشد الكره خصائص الأنوثة وتحاربها في نفسها ما استطاعت، وتبذل قصاراها في قهرها، والتغلب عليها وإخضاعها لحكم إرادتها وعقلها.

وهكذا شعرت جورج ساند أنها بإرادتها القوية، وحبها الجد والمثابرة والعمل، وهدوئها واتزان أعصابها، تمثل في هذه المأساة دور الرجل. وأن موسيه برعونته وغروره واستهتاره يمثل دور المرأة. فكبر عليها أن يستعبدها الحب من هو أضعف منها، وثارت في نفسها تلك الرغبة الأبدية، رغبة المرأة في الرجل الذي هو أقوى منها، والذي تستطيع أن تحبه لأنه يستطيع أن يخضعها ويفرض عليها سلطان خلقه ورجولته وإرادته.

ولم تعد تحتمل الحياة مع الشاعر، ونمت في ذهنها فكرة الانفصال عنه.

أرادت أن تسترد حريتها وتتخلص من هذا الطفل المتعلق بعنقها، ولكنها أحجمت أول الأمر وترددت. أحست غرامها القديم يستيقظ من سباته، ويستولي عليها، ويتمكن منها، ويقترن بعاطفة جديدة لم تكن في حسبانها.

خيل إليها أنها تحنو على موسيه حنوًا ينبعث من أحشائها ومن قلبها، وأن شيئًا من روح الأمومة قد سرى في حبها. فتريثت وراجعت نفسها، واستقر رأيها على وجوب تهذيب شخصية حبيبها لتتمكن من الحياة بجواره والإخلاص له.

حاولت أن تجعل من الشاعر الكسول رجلًا عاملًا، ومن الفتى الطائش شابًا عاقلًا، ومن الإنسان الصلف المتكبر المستهتر المغرور مخلوقًا رقيقًا متزنًا متواضعًا، فبدأت تصارحه برأيها فيه، وتنتقد مسلكه بالحسنى، وتمده بمختلف الإرشادات والنصائح، وتدفعه إلى حب العمل اليومي، وتزين له حياة البيت، وتبذر في عقله وقلبه بذور الإرادة والقوة والرجولة. ولكن الشاعر استخف بها وسخر منها، ثم كبر عليه أن تجرؤ امرأة على اقتحام حرمه النفسي، فتمرد عليها، وألزمها حدها، وانطلق يلهو ويمرح وفق هواه، وهي تنذره وهو يضحك، ويهز كتفيه في وقاحة متحديًا وغير حافل.

ويجب إنصافًا لجورج ساند أن نقول إنها أعادت الكرة مرات، وجاهدت أسابيع طويلة لتبديل شخصية حبيبها، وإنها استعطفت وتوسلت وبكت، ولكن على غير جدوى.

حينئذ دب اليأس في فؤادها، فتغير كل شيء، واستحالت العاشقة

المفتونة إلى امرأة أخرى. أهملت الشاعر إهمالًا خبيثًا قاسيًا متعمدًا، فالتهبت كبرياؤه وكاد يجن!

لم تكترث له، وشرعت تخرج مع سواه، وتتعرف إلى الرجال، وتغشى المجتمعات، وتطيل السهر في الملاهي حتى ساعة متأخرة من الليل.

وأصبح هو الذي يمكث في البيت بمفرده، وهو الذي ينتظرها، وهو الذي يتلهف عليها، وهو الذي يأكل الشك عقله وقلبه، وهو الذي يمثل حقيقة دور المرأة المستضعفة المنبوذة المنكودة الحظ.

وعصفت به الغيرة وبرح به العذاب، ولكن المرأة لم تشفق عليه، ومضت توفق بين حياة العمل وحياة اللهو، فرحة بحريتها، متخففة من حملها، سعيدة طروبًا، كأن الشاعر بالأمس كان عالة عليها.

ولم يفهم موسيه أنها أرادت بمسلكها الجديد أن تحفظه وتثيره وتدفعه إلى الانصراف عنها،لم يفهم أنها تخلت عنه ليتخلى هو الآخر من تلقاء نفسه عنها، لم يفهم أنها زهدت فيه، وأن من واجبه أن يستنهض ميت كرامته ويرحل. فاستمسك بها، وازداد تعلقًا بحبها، وآلى على نفسه أن يسترجعها مهما كلفه الأمر.

وأحست جورج ساند بثقل وطأة حبه عليها، فزادته جفاء وإعراضًا، فاحتمل صابرًا متجلدًا ثم اضطرم حقده واتقدت لوعته، فانهال عليها لومًا ولعنًا وتقريعًا. فثارت ثورتها عليه، وأخمدت الثورة في قلبها كل شعور بالرحمة وكل شفقة على الماضي، ثم تطورت الثورة من غضب إلى بغض،

ومن بغض إلى كيد، ومن كيد إلى رغبة واضحة صريحة في الغدر والانتقام!

وإذ ذاك أصيب ألفريد دي موسيه بحمى خبيثة ألزمته الفراش وحالت بينه وبين كل مقاومة، وقع فريسة للمرأة وهو لا يدري! أسلمته الأقدار إليها، وتركتها تفعل به ما تشاء!

ولما رأته صريعًا يجأر ويتلوى، اصطنعت الحنان، وتكلفت الحب، وتظاهرت بالإخلاص والتضحية، وأخذت تعني به في البدء، وتسهر عليه وتعاونه في كبح المرض، ثم تراخت عزيمتها، وفترت همتها، وعادت إلى الخروج ليلًا في صحبة أصدقائها، متناسية ذلك المريض المنبوذ الذي كان يئن في وحدته عذابًا ويأسًا وحسرة!

ولما اشتد به المرض جاءته ذات يوم بطبيب إيطالي يدعى (باجيلو)، فلم يكد يبصر هذا الطبيب الجميل، أسمر اللون، قوي العضل، ولم يكد يلحظ نظراته إليها، ويستبطن حديثه إليها، حتى ارتعد وانخلع قلبه، وشعر بالحقيقة المروعة تنفذ إلى صدره كطعنة سكين!

أدرك –والحمى تلهبه، والمرض يقوضه، وعقله يوشك أن يختبل– أن ذلك الطبيب الجميل أصبح عشيقها، أدرك أنها انتهزت فرصة مرضه لتقضي عليه!

أدرك أنها قد استحالت من ملاك في الحب والإلهام إلى شيطانة في القسوة والشهوة، أدرك أنها تعمدت ارتكاب هذه النذالة لتجهز على البقية الباقية من أمله، وتقطع بينهما في المستقبل كل صلة!

أدرك كل هذا إدراكًا عميقًا ساحقًا، وأيقن أن كل شيء قد انتهى، فاسودت الدنيا في عينيه، وتاق إلى موت عاجل ينقذه من الحب، وينقذه من الغيرة، وينقذه من الهوان، ففكر في الانتحار فترة، ولكنه ارتجف وتراجع.

تراجع وآثر أن يموت وهو حي، آثر أن يعبد شيئًا غير المرأة، وغير اللذة، وغير الخيال. ففكر في الله، وأسرع من فوره ونهض من فراشه، وتدثر بمعطفه وهو محموم وانسل من البيت تحت جنح الظلام، واتجه صوب ذلك الدير الذي لم يكد يدخله حتى ارتجف أيضًا وتراجع وفر فرار الجبناء.

وها هو ذا الآن في الشارع المظلم الضيق، يرتعد من فرط الحمى، ويتقي بمظلته شآبيب المطر، ويحدق إلى واجهة الدير، ويقول في نفسه وهو يختلج: كيف يمكن أن أحتمل الحياة بعد اليوم؟ كيف يمكن أن أعيش بدون تلك المرأة؟ يجب أن أعود إلى الدير، يجب أن أختفي، يجب أن أموت!

وهدأت العاصفة فجأة، وطلع الفجر، واندفق شعاعه البنفسجي على المدينة الهامدة، فأحس موسيه أنه ينشط ويتوثب، وأن قواه قد ارتدت إليه، وأن في بدنه الواهن المتصدع إرادة مغامر وعزم جبار، فتقدم خطوة، ثم تقدم أيضًا، ثم تشجع وطرق باب الدير مرة ثانية ودخل.

دخل يترنح كالشارب الثمل، وما كاد يبصر رئيس الدير حتى جثا عند قدميه وهتف: "ارحمني يا أبتِ، وأفسح لي مجالًا عندك، فأنا إنسان شقي!".

فأنهضه الرئيس، واستفسر عنه من الراهب البواب، ثم تفرس فيه مليًا ودنا منه وقال: "لقد جئت ثم ذهبت يا بني. وقد تمكث هنا أيامًا ثم تعود فتذهب، أنت حائر وقلق، وأنا لا ألمح فيك صفاء النية وصدق العزيمة وعمق الإيمان، لا يمكنني أن أقبلك! اذهب إلى الدنيا واعرف حقيقة نفسك وعواطفك أولًا ثم عد إلي بعد عام، ومتى عدت هادئًا ثابتًا عازمًا رحبت بك، أما الآن فليس في مقدوري واأسفاه أن ألبي سؤالك. أنت متردد يا بني والله لا يحب المترددين! طاب يومك".

وخرج موسيه مطرق الرأس، محدودب الظهر، متهالكًا محطمًا. ولما احتواه الشارع الضيق، رفع بصره إلى السماء المصحية، وانبعث من صدره أنين ممزق طويل.

أدرك أن الله لفظه كما لفظته المرأة والحياة، فتلفت حوله كمعتوه، ولم يعرف إلى أين يذهب، وإلى من يلجأ، وبأي حطام يتعلق قبل أن يغيبه اليأس في لجة العدم.

وجاشت عواطفه واصطخبت، فحاول أن يكبحها، ولكنه أحس على الرغم منه أن لا عزاء له ولا خلاص إلا في إلهابها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. فاستند إلى جدار أحد البيوت، وأخرج من جيبه ورقة وقلمًا، وشرع ينظم تلك العواطف في قصيدة تسجل مأساة حبه، وتنقذه من لوعته وحسرته ويأسه، وتقر في نفسه الراحة والطمأنينة، ولو إلى حين.

ولما أتم وضع القصيدة أبرقت عيناه فرحًا ونشوة، وأمده فيض عبقريته بسيل طارئ من القوة، فانتهز الفرصة التي حباه القدر بها،

واندفع يعدو صوب منزله مشبوب الفكر والإرادة والعزم.

وما إن دخل حجرته حتى أسرع فحزم أمتعته، ثم فتح النافذة وألقى على مدينة البندقية المشؤومة نظرة، ثم تحول نحو مخدع حبيبته المستغرقة في نومها يود أن يتزود منها هي أيضًا بنظرة وداع، ولكنه تمالك نفسه، وخنق في صدره حب قلبه، وأبى أن يوقظها بل أبى أن يراها، وانطلق من فوره إلى المحطة راسخ العزم، ثابت القدم، وابتاع تذكرة سفر إلى باريس.

وعاد موسيه إلى باريس يحمل شخصية رجل ناضج مكتمل، ولكن قلبه المشغوف بحب جورج ساند كان قد مات، مات لتبعث عذاباته شعرًا إنسانيًا خالدًا على مر السنين والأجيال!

الفصل السابع

قلب عبقري

"متى استنفدت في ظلك كل قوى حبي، وكل قوى فرحي، وكل قوى حياتي، ثم غافلني القدر فأسلمني إلى الموت بالرغم مني، فسأرقد في مثواي الأخير ساكن النفس، هادئ القلب، مستريح الضمير. سأرقد يا فتاتي، يا ابنتي، يا أختي، في ظلمات الغد الأبدي وأنا ابتسم وأنظر إلى عينيك"

الروائي الروسي مكسيم جوركي

رسالة من مكسيم جوركي

أولع الروائي الروسي الأشهر مكسيم جوركي وهو في الخمسين من عمره بفتاة في العشرين تدعى أولجا أيفانوفنا، وبعث إليها بهذه الرسالة البديعة التي تمثل أروع تمثيل قلب عبقري، كما تمثل مبلغ ما في غرام الكهول من عنف وقوة وحسرة وجنون.

قال الروائي:

"لا أعرف لماذا كتبت إليك هذه الرسالة، كان يجب علي ألا اكتبها أبدًا، ولكن قوة قاهرة دفعتني، وعاطفة عميقة أخذتني، ورغبة مستبدة قاسية ختمت علي بصري، وجردتني من كل عقل وكل فكر وكل إدراك.

إني لأخشى أن أتكلم، وأخشى أن أكتب. وها هي ذي الكلمات تفر مني، وتتملص من قلمي، وكأنها تقول لي: مكانك أيها الرجل! فأنت غر أبله، وأنت أحمق معتوه.

ماذا؟ أفي مقدور مثلي أن يتطلع إلى السعادة؟ أفي مقدور مثلي أن يخالس النعيم؟ أنا رجل في الثالثة والخمسين من عمري، وأنت، أنت فتاة في الثانية والعشرين! ومع ذلك فيجب أن ألقي عند قدميك بحملي، ويجب أن أفتح لك مغاليق صدري، ويجب أن أعترف لك بهذا الحب الطارئ القوي العنيف، الذي غافل فكري، واستقر من كياني المعذب في الصميم!

نعم أنا أحبك يا فتاتي! أقولها والخجل يملأ نفسي، والذلة تسحق فؤادي، والعار يجلل هامتي. ولكن ما حيلتي في عواطفي؟ ما حيلتي في نداء الشباب والحياة الذي يجلجل من حولي، ويصم أذني، ويعميني عن رؤية حقيقتي؟!

إني مريض وضعيف وحزين، ولكن المرض هو الذي يغريني بالصحة، والضعف هو الذي يغريني بالقوة، والحزن هو الذي يغريني بالفرح، ويزين لي تجربة السعادة في حبك لآخر مرة!

لا يمكنك أن تتصوري مبلغ الحرقة التي أحس بها كلما رأيتك، أو تحدثت إليك، أو لمحت في فورة حلمي ظل ابتسامتك. فأنت الجمال بنضرته الذهبية، وأنت الشباب بإشراقه الحي، وأنت القوة الدافقة الغامرة الهازئة منذ الأبد، بكل تراجع وكل تردد وكل خوف.

والحق أن خوفي من الموت هو الذي يدفعني إليك، ولأني أخاف الموت أجد نفسي بالرغم مني مرتميًا في حضن حبك، أنت أيتها الفتاة التي لا يمكن أن يعرف الخوف إلى جمالها وشبابها وقوتها سبيلًا!. فالمرض الذي أشعر به يذوب ويضمحل في فيض صحتك، والضعف الذي أثور عليه يتبدد ويفنى في وثاقة تركيبك، والحزن الفاجع الذي أغالبه وأقاتله ينطرح على الأرض صريعًا، وتموت صرخاته اليائسة في ضحكاتك الطاهرة البريئة المدوية النشوى!

فأنت الدم لمن جفت دماؤه، وأنت العصب لمن تصدعت أعصابه، وأنت الشمس لمن وهنت عظامه، وبات يتحرق ويتلهف على وقدة نار تحييه، وتنقذ جسمه البالي من همود القبر وبرودة العدم.

هذي أنت، والفارق بينك وبيني عظيم، فكيف أطمع في حبك؟ وكيف أنظر إلى وجهك؟ وكيف يطاوعني ضميري على محاولة الجمع بين موتي وحياتك؟

إنها لجريمة مني أن أفكر فيك، وجريمة مني أن أعبدك، وجريمة مني أن أخط مثل هذه الرسالة إليك. ولكنني أريد أن أعيش وأنت واسطة حياتي، أريد أن أنتشي وأنت صبابة كأسي، أريد أن أتغلب على المرض والضعف والشيخوخة والموت، وأنت حافز قوتي، فأنقذيني يا فتاتي!

أنقذي روحي من الظلام، وعقلي من الجنون، وجسدي من سرعة التلوث والتعفن والبوار. انحني علي ولو لحظة، أشفقي علي ولو خدعة. مالئيني على حبي، ومالئيني على أملي، ثم اهزئي بي واضحكي مني، على

شرط ألا أفهم، وعلى شرط ألا أرى أو أسمع!

هذا كل ما أطلبه إليك: كلمة وبسمة، نظرة وتحية، رقة وعذوبة، شفقة ورحمة، عطف وحنان. ولك بعد ذلك أن تسعدي، لك بعد ذلك أن تعشقي، لك بعد ذلك أن تتزوجي. وإني لأشهد قلبي الممزق، وأملي المخيب، وحظي المنكود، أن أحب أبناءك كما لو كانوا من فلذة كبدي وعصارة دمي!

فامنحيني النعمة الأخيرة التي تصبو إليها نفسي، نعمة أن أراك فقط، وأحس وجودك فقط، وأعيش في ظلك فقط.

ولسوف أدفن همي في صدري، وأكتم سري عن الجميع، وأستحيل أمام الناس –بملء إرادتي واختياري، وملء لوعتي وعذابي، وملء نشوتي وفرحي– إلى تمثال للصمت، تغلي في صدره العواطف ولا تتحرك شفتاه بعبارة شكوى، أو شبهة زفرة، أو كلمة عتاب، أو همسة أنين!

وإني لواثق من أني عندئذ سأعيش وأتمتع، سأعيش وأتجدد، سأهزم بقربك المرض، وأصرع بوجودك الألم، وأقهر بحبك المتسامح النقي الكريم ذل الضعف وعجز الشيخوخة وسلطان الموت.

ومتى استنفدت في ظلك كل قوى حبي، وكل قوى فرحي، وكل قوى حياتي، ثم غافلني القدر فأسلمني إلى الموت بالرغم مني، فسأرقد في مثواي الأخير ساكن النفس، هادئ القلب، مستريح الضمير. سأرقد يا فتاتي، يا ابنتي، يا أختي، في ظلمات العدم الأبدي وأنا ابتسم وأنظر إلى عينيك!"

وكانت أولجا إيفانوفنا كريمة النفس، فأجابت جوركي إلى سؤله، ولما تزوجت عرفته إلى زوجها، وأفسحت له صدر بيتها فكان الصديق المثالي الذي احترم حبه واحترم وعده، وظل صامتًا نبيلًا عفيفًا حتى ضاق ذرعًا بحظه، ولم يعد في وسعه أن يحتمل، فاختفى عن الزوجين ذات مساء وغادر بيتهما على ألا يعود إليه أبدًا!

الفصل الثامن

أنشودة الطائر الصريع

"ولما أعياني الصبر لم أجد عزاء إلا في شعري وفني، فآليت على نفسي أن أبدع من عزائي وحسرتي عملًا فنيًا رائعًا، يخلد حبي ويخلد ذكرى سونيا ويخلدني، وهكذا كتبت ديوان شعري الأول بدموعي ودمي!".

الشاعر الروسي لرمنتوف

الشاعر الروسي لرمنتوف

يعتبر لرمنتوف من أعظم شعراء روسيا في القرن الماضي، وقد استمد شعره من أغاني القوقاز، ودعي بحق شاعر القوقاز الخالد. وهذه قصة غرامه بفنانة عظيمة، كان لحبها أبلغ الأثر في حياته. وقد اقتبسنا هذه القصة من مذكرات الشاعر العظيم.

قال لرمنتوف:

"كنت أرى في الحب لهوًا رائعًا، وأنظر إلى النساء باعتبارهن عرائس ودمى، ولا أتورع عن التغرير بهن كلما استطعت أن أخضع منهن واحدة.

لم أكن ميالًا إلى الحب العاطفي كغيري من الشباب، بل كنت شهواني النزعة، مادي النظرة، حسي الهوى، أمزج في الغرام الجد

بالهزل، وأضحك وأمرح وأستمتع، غير حافل بمصير المرأة التي ركنت إلي، ووثقت في، وآمنت بي، كنت شديد الكبرياء يملؤني الزهو والغرور، وتضاعف انتصاراتي الغرامية، اعتدادي بنفسي واعتزازي بقوتي، ورغبتي الدائمة في التقلب والتلون وعدم الاستقرار.

ومن غريب أخلاقي أني كنت أنظم قصائد الحب دون أن أعرف الحب، أنظم قصائد الحب متخيلًا أحلام المحبين، متصورًا آلامهم وأفراحهم، متبرمًا بتجربة هذه الآلام والأفراح في نفسي، مكتفيًا برسمها والتغني بها عن طريق الوهم الشعري المجرد والتصوير الفني الرخيص.

وهكذا كنت أحتقر الحب وأعبث بالقلوب، وأقسو على العذارى، وأردهن خائبات حانقات يائسات، حتى التقيت لأول مرة بالراقصة الفنانة العظيمة (سونيا يوروبوف)، وعندئذ تغيرت حياتي وتبدلت شخصيتي، وأوشكت –قبل أن تستيقظ عبقريتي– أن أفقد عقلي وأجن!

تعرفت إلى سونيا في حفل عائلي كبير، فراعني منها شعرها الأسود المموج، وثناياها البيضاء الساطعة، ولون بشرتها الشمعي الضارب إلى الصفرة، وفيض الحيوية والمجد الماثل في هيبة مظهرها، واتقاد نظراتها، وعنف حديثها.

وكانت قد سمعت عني، وعرفت من صديقاتها أنباء مغامراتي، ولكنها لم تستطع أن تتصور أن شاعرًا وديعًا رقيقًا مثلي، يمكن أن يكون مع النساء جاف القلب، غليظ الإحساس، متحجر العاطفة.

والحق أنها بادلتني أول الأمر إقبالًا بحذر، فأسرفت في التودد إليها، فخدعت هي وتشجعت، وأفعم نفسها السرور والزهو. فأقبلت بدورها علي، وشرعت تتودد إلي وتلاطفني.

وفي تلك اللحظة، في تلك اللحظة التي تغلب فيها غرور الفنانة العظيمة على عقلها، نهضت أنا فجأة، وحييتها تحية باردة، وانصرفت عنها دون اعتذار، وانطلقت أغازل غيرها، وخلفتها جالسة في مقعدها، جاحظة العينين، مفغورة الفم، مبهوتة مذهولة، تنتفض حنقًا واستنكارًا وسخطًا.

أردت أن اتحداها وأعبث بها، وأخضع مجدها وشهرتها لسلطاني، ولكنها كانت أشد كبرياء مني، وأصلب عزيمة، وأقوى إرادة، وأقدر على التهكم والسخرية والتشفي، فحقدت علي، وأضمرت لي الشر، وآلت على نفسها أن تذل كرامتي، وترغمني على حبها، وتثأر مني لبنات جنسها، وتعلمني كيف احترم المرأة، ولا أعبث بقلوب العذارى الساذجات.

واستحوذت على الفنانة طبيعة مهنتها وطبيعة الأنثى، واضطرمت فيها عوامل الخبث واللؤم والدهاء، وأرادت أن تمثل دور العاشقة المفتونة لتوهمني أني قد انتصرت، فيسهل عليها فيما بعد تمزيق فؤادي، وإصابة كبريائي في الصميم.

وعزفت الموسيقى وبدأ الرقص، وكانت سونيا يوروبوف أعظم وأشهر راقصة إذ ذاك في بطرسبرج، وكانت فتاة شريفة تعول أسرتها من فنها، وتعيش منقطعة لهذا الفن، وتفكر في الزواج من راقص أو شاعر

يقدرها ويفهمها، ولا يحرمها من مزاولة مهنتها والظهور على المسرح.

فلما ارتمت بمفردها في حلبة الرقص تجلت مواهبها الفنية الخارقة التي أعجبت بها أوروبا كلها. كان رقصها يمثل عذاب الحب، وعنف الغيرة، وثورة الانتقام. وكانت تتمايل كالغصن، وترفرف كالطائر، وتقفز كالنمر، وتهدر كالموج، ثم تنساب في ليونة كالأفعى، وهي تحدق إلي تحديقًا ثابتًا، ارتعدت له فرائصي وهلع قلبي.

كانت كأنها تخاطبني وتناجيني وترقص لي وحدي، فأحسست أن إعجاب الناس بها يرتد إلي وينعكس على شخصي، وأني أنا الذي ميزته الفنانة العظيمة، واصطفته حبيبًا لقلبها، ووحيًا لعواطفها وفنها.

وبعد أن أدت سونيا رقصتها الرائعة، تقدمت إليها وأنا أرتجف، وعرضت أن أراقصها. وعندئذ تجهمت لي، وأعرضت عني، وخلفتني بدوري حانقًا غاضبًا، واندفعت صوب أحد الشبان، وراقصته في حماسة وجنون، وهي ترميني بالنظر الشرز وتضحك، وكظمت غيظي وتحينت الفرصة لأنتقم.

وابتهجت الفتاة بما فعلت، وتهيأت لمواصلة النضال، تعرفت إلى أسرتي، واندمجت في الأوساط التي أغشاها، وشرعت تضرم في صدري النار. كانت تقبل علي ثم تعرض، تمنيني ثم تردني خائبًا، تظهر إعجابها بشعري ثم تطري النقاد أعدائي كي تثور ثائرتي عليها، ولا أعرف كيف أخضعها، فأنطوي على نفسي، وأتألم في حنق وكمد وصمت.

وعصفت بي كبريائي، وعز علي أن تلهو بي امرأة، فبادلتها خبثًا

بخبث، وترفعًا بترفع، وإعراضًا بإعراض. فما كان منها إلا أن اختفت عني تمامًا، وظلت محتجبة أسبوعًا بطوله، ثم ظهرت في إحدى الحفلات مع شاب صبيح الوجه، مفتول العضل، أنيق الهندام، فغلى دمي في عروقي، وراودتني فكرة الجريمة، وقام في نفسي أن أقتلها لأستريح.

ولأول مرة في حياتي عرفت الغيرة، أحاطت بي الوساوس، وافترستني الريب والشكوك، احتلت سونيا عقلي، وملكت علي مشاعري، واستبدت بخيالي، وخالطت مني الذهن والإحساس، فكنت أتصورها تارة في صحبة غريمي، فأصيح وأجأر وأبكي بكاء الأطفال، وأتمثلها تارة أخرى وهي ترقص، فأراها في كل شيء أمامي، في خرير المياه، وحفيف الأشجار، وهدير الموج، وزفيف الريح، فيتوه فكري، ويصيبني من فرط الهوس شبه خبال.

دوختني الأنثى وصرعتني. فزايلني الفرح، وتسربت مني قوى الحياة، وأصبحت لا أجد العزاء إلا في شعري.

ونظمت شعرًا حاولت أن أصب فيه عصارة عذابي، وخيل إلي أن نغمة إنسانية جديدة سرت في قصائدي، فاغتبطت بهذا النصر الفني الذي أحرزته بفضل ألمي. وأردت أن أكتفي به. ولكن طيف سونيا كان يلاحقني ويقض مضجعي ويصليني مر العذاب، فلم أستطع أن أقاوم. وفي ذات ليلة وقد سهدني الحب، ونهشتني الغيرة، نزلت عن كبريائي، وامتهنت كرامتي، وكتبت إليها أقول: "ما عرفت الحب قبل أن أعرفك، أية فائدة من الظهور بمظهر القوة؟! لقد كنت أشعر بسعادة كبيرة كلما امتلكت فؤادًا أو

غررت بقلب، سعادة القسوة والكبر والأنانية. ولكني الآن وقد انسحق قلبي، أحس ضربًا آخر من السعادة، سعادة الألم والتكفير والتضحية. إني لأفكر فيك بعدد ما في اليوم من دقائق وساعات، إني لأنشد عفوك ومرحمتك، بل إني لأستعذب في هواك الذل إن كان ذلي يرضيك ويعود علي بنظرة واحدة منك! لقد فزت بما لم تفز به من قبلك أية امرأة. فلا تسرفي وكفي عن تعذيبي أمنحك نفسي خالصة وأقفها عليك وحدك! لن أتحول بعد الآن. لن أتقلب وأتلون، لن أخادع وأكذب، لن أبحث عن الزهو الباطل والنصر الزائل والمتعة الفانية، لن أرى العالم إلا من خلال عينيك أنت، ولن أنشد الجمال إلا في نور وجهك وضوء جبينك!

لقد علمتني معنى الثبات، وهديتني إلى فضيلة الاستقرار، فأتمي نعمتك علي واستكملي خلاصي، إذ لا حياة لي ولا خلاص إلا بك!".

واعتقدت أن سونيا ستتأثر بخطابي، وتلبي ندائي، وتسرع إلي. ولكنها أقدمت على أمر فظيع، ارتكبت إثمًا مروعًا، جمح بها الغرور والكبر ورغبة الانتقام، فأرادت أن تجرب قواها، وتذلني أيضًا، وتمتحن حبي، وتزهو على أترابها بإحراز نصر ساحق علي. فماذا فعلت؟ شهرت بي، فضحت عاطفتي، كاشفت بها صديقاتها، أطلعتهن على خطابي، وراحت تردد وتهتف أن الشاعر المتبجح المتغطرس قد استسلم لها وخضع!

هذا التصرف المنكر أفقدني صوابي، فصغرت نفسي في عيني، وأحسست بالعار يجللني، فجن جنوني، وارتددت بالرغم مني إلى طبيعتي القاسية المتجبرة.

استحال حبي لسونيا إلي بغض هائل مشوب بالاحتقار، حرمت عليها دخول بيتي، خيرت أصدقائي بيني وبينها، شوهت صورة لها وأرسلتها إليها ممزقة، استأصلتها من عقلي وقلبي، واعتبرتها كأن لم تكن. ومع ذلك فقد كنت أتألم، كنت اتألم وألعنها دون أن أفكر لحظة واحدة في أني أنا السبب في شقائي وشقائها!

والعجيب أني لم أفهم، لم أفهم أن سونيا كانت إذ ذاك أشقى ألف مرة مني، وأتعس حظًا، وأعمق ألمًا وحسرة.

لم أفهم أنها كانت تحبني إلى حد العبادة، وأنها إنما أقدمت على تلك الفعلة الشنعاء مدفوعة بحذرها مني، وخوفها من تقلبي، ورغبتها في إشهاد الناس جميعًا على عاطفتي؛ كي تقيدني وتحرجني، وتتأكد من صدق حبي. وأمعنت في بغضي لها واحتقاري، وبعد أن كنت أنا الذي أتوسل أصبحت هي التي تلتمس وتستجدي.

ولما برح بها اليأس، وسدت في وجهها السبل، كتبت إلي هذا الخطاب تنشد فيه بدورها الرحمة والمغفرة:

"ما ذنبي إذا كانت حياتك القديمة هي التي دفعتني إلى الشك في حبك؟ ما ذنبي إذا كان طبعك المتقلب المتلون هو الذي ساقني إلى الإسراف في تجربة حبك؟ لم أشأ أن أذل كرامتك، ولكني أردت الاطمئنان إلى صدقك. أنا امرأة، والمرأة لا تؤمن إلا بالبرهان، ومن سوء طالعها أنها تقيس حب الرجل بمقدار ما يحتمل في سبيلها من عذاب. ولقد عذبتك لأني أريد أن تحبني، ولأنك أنت نفسك عذبتني. فاعفُ

عن ذنبي، فلا راحة إلا بعد تعب، ولا هناء إلا بعد شقاء، ولا حب إلا بعد تناكر وخصومة وعداء.

ولقد تخاصمنا الكفاية، ولم يعد في قلبك ولا في قلبي أي موضع للضغينة أو للحقد أو للانتقام. فأنا أتقدم إليك اليوم ولا شفيع لي إلا حبي. فافهم نفسي وقدر أسباب تصرفي، واعلم أن ما احتملته منك يساوي ما حملتك إياه أو يزيد، ومع ذلك فأنا لا أطلب تبرئتي، بل أنشد رحمتك. وما حاجتي الآن بالتفوق عليك، وقد أصبحت أحبك، ولا أستطيب الحياة إلا خاضعة لك. لقد تم لك ما أردت فامنحني بعض ما أريد، أعبدك إلى الأبد!".

وأوشكت أن أتأثر وأضعف حيال هذا الخطاب، وليتني تأثرت وضعفت، ولكن كبريائي عادت فتمكنت مني، فقام بنفسي أن أشهر بسونيا كما شهرت بي، غير أني عدلت بعد تفكير، وآثرت أن أرد إليها خطابها في اليوم نفسه.

وعندئذ وقع مالم يكن في الحسبان.

أعلنت سونيا أنها ستغادر روسيا وترحل بعد أن تقيم لجمهور المعجبين بها حفلة وداع شائقة، تمثل فيها وترقص رقصة جديدة أسمتها: "أنشودة الطائر الصريع!".

ودهشت أنا لهذا النبأ، واستولى علي الذهول، وأحسست فجأة إني قد أموت لو فارقتني سونيا. ومع ذلك فقد أبيت أن أذهب إليها، أبيت أن أراها، أبيت أن أذل أمامها، فلبثت محتفظًا بصمتي وإعراضي، متوقعًا

أن تضعف هي، ولكنها لم تعد، لم تنزل هي الأخرى عن كبريائها، وخلفتني فريسة الكمد والحنق والسخط.

وجاءت ليلة الحفلة، فحزمت أمري، وعقدت العزم على أن أشهدها. لم أفكر في أن أتصل بسونيا، بل أردت أن أراها من بعيد كغيري من المتفرجين، وأن أتزود من فنها الرائع قبل رحيلها عن أرض الوطن.

ودخلت المسرح مسلوب الحول، وما إن رفع الستار وبدأ التمثيل حتى انخلع قلبي؛ إذ رأيت مأساة حبي ومأساة سونيا ممثلتين أمامي أبلغ وأفجع تمثيل.

رأيت سونيا في شكل طائر أزرق بديع، ترقص على نغمات الموسيقى، رقصًا مشجيًا حزينًا ممزقًا. ثم رأيت الصياد يبرز فجأة من زاوية المسرح، ويحوم حولها، ويتربص بها. ثم رأيتها تسرع إليه بدل أن تفر منه، وتترامى عند قدميه وتقبل يده، وهي تلتمس وتتوسل وتبكي. ثم رأيت جناحيها العريضين يرفرفان في حب غامر وحنان عميق، ويحتضنان الصياد القاسي، الذي أبى إلا أن يدفعها عنه في عنف، ويركلها بقدميه ويصوب إليها سلاحه ويطلق عليها النار.

وسقط الطائر الأزرق أمامي صريع القسوة والجحود، ينتفض ويختلج، ويصرخ صراخًا متحشرجًا!

ودوت القاعة بهتاف منقطع النظير، فانقبض قلبي، وأحسست إحساسًا عميقًا غريبًا أني وحيد في هذه الدنيا، وأن سونيا ليست لي،

وأنها ملك لهذه الجماهير التي تقدسها وتعبدها وتهلل لها.

وشعرت نحو تلك الجماهير الصاخبة بحيرة هائلة، وخيل إلي أنها ستظل إلى الأبد حائلًا بيني وبين حبيبتي حتى لو عدت إليها. فتحاملت على نفسي، ونهضت محطمًا منسحقًا أشق زحمة الجماهير، وأتقدم صوب الباب.

وفي تلك اللحظة، تلك اللحظة التي لن أنساها ما حييت، دنا مني أحد عمال المسرح وحياني في أدب، وطلب إلي أن أصعد إلى المسرح لمقابلة سونيا.

وأدركت أنها لمحتني وهي ترقص، فجمد الدم في عروقي، ولبثت في مكاني ذاهلًا لا أدري ماذا يجب علي أن أفعل، خشيت إن أنا سعيت إليها وهي في أوج مجدها، أن تنتهز فرصة ضعفي فتثأر مني وتنكل بي أمام المعجبين بها. فطاش صوابي، وأفقدتني كبريائي ملكة الحكم على سونيا وعلى نفسي، فمضضت على شفتي، واستجمعت قواي جهدي، ورجوت عامل المسرح أن يعتذر عني، ثم تحولت واندفعت نحو الباب.

لماذا أقدمت على هذا العمل الفظيع؟ لماذا كنت قاسيًا وشريرًا إلى هذا الحد؟ كيف طاوعني قلبي؟ لا أدري! كل ما أذكره هو أني خرجت في تلك اللحظة إلى الشارع وانطلقت فيه كمخبول، وطفقت أمشي على غير هدى، خاوي الروح من كل عاطفة وإحساس.

وبينما كنت أنطلق، حاثًا خطاي، مسلمًا نفسي إلى المجهول،

سمعت صرخات عالية متعاقبة تترامى إلي ثم تهدر حولي. فالتفت مذعورًا فأبصرت الجماهير المتدفقة من باب المسرح، تدفعني كالموج وتجرفني وتتجه بي إلى باب الممثلين وهي تصيح: سونيا.. سونيا!

فخفق قلبي وأحسست بخوف عميق يتملكني، فاخترقت الجماهير المائجة، ووثبت إلى باب الممثلين واندفعت إلى مقصورة سونيا وأنا ارتجف.

وما كدت أدخل المقصورة حتى جمدت عيناي واقشعر بدني، وكدت من فرط الذعر أقع مغشيًا علي.

رأيت سونيا ممدة على مقعد مستطيل، وحولها الممثلون زملاؤها، وهي ما تزال في ثوب الطائر الأزرق الصريع، تصرخ وتجأر وتتلوى، والدم ينزف منها، وبجوارها سكين ملوثة، أدركت على الفور أنها قد أغمدتها في صدرها عندما حمل إليها الخادم كلمتي الفاصلة المروعة، التي قضت على كل آمالها!

وتقدمت إليها كمعتوه وأخذتها بين ذراعي، فغمغمت اسمي والدموع تترقرق من عينيها، ثم عانقتني وقبلتني، فقبلتها أمام الجميع، قبلتها بكل قوى حبي ولهفتي وأملي، ثم قبلتها أيضًا في جنون وأنا أصيح: "يجب أن تعيشي، يجب أن تعيشي! إني أحبك".

فرفت أهدابها كأوراق زهر ذابلة، وصعدت نفسًا مستطيلًا، ثم نظرت إلي نظرة ممزقة أودعتها كل حسرتها وكل لوعتها ويأسها، ثم عانقتني بغتة وأسلمت الروح، وبصرها الثابت المروع ما يفتأ يحدق إلي!

وماتت الفنانة العظيمة سونيا شهيدة كبريائي وقسوتي. فلبثت أيامًا طويلة ذاهلًا شاردًا أعيش في وحدة مظلمة قاتلة، وأخشى أن يخالط الجنون عقلي. ولما أعياني الصبر لم أجد عزاء إلا في شعري وفني، فآليت على نفسي أن أبدع من عزائي وحسرتي عملًا فنيًا رائعًا يخلد ذكرى سونيا ويخلدني. وهكذا كتبت ديوان شعري الأول بدموعي ودمي، فاستقبله الأدباء استقبالًا حماسيًا أذهلني.

وعندئذ، عندئذ فقط، أدركت هذه الحقيقة المرة. أدركت أن الفنانة العظيمة التي عذبتها وقتلتها هي التي أحيتني وخلقتني!

الفصل التاسع
عندما يبتسم الحظ

"أنت لست امرأة ولا ملكًا، أنت أكثر من ذلك بكثير، أنت آلهة جنت فغافلت أترابها وفرت من العالم الآخر، ثم اصطفتني من دون الرجال طرًا، وأحبتني لتبني معي على هذه الأرض صرح الحقيقة وملك السماء!".

الشاعر الأسوجي يوهانس مجدبورج

الشاعر البائس يوهانس مجدبورج

هذا الشاعر البائس الشقي كان من أنبغ الشعراء الأسوجيين في القرن الماضي، وقد وقع له حادث غريب، بدل حياته في لحظة، وأيقظ– تحت تأثير امرأة ممتازة– كوامن عبقريته، وإليك هذا الحادث الغريب كما صوره الشاعر في مذكراته:

"طالما فكرت في تلك الصلة العجيبة التي تربط منذ الأبد بين الشعر والبؤس، ولقد ولدت شاعرًا بالفطرة، نظامًا بالسليقة. فحالفني البؤس، ولازمني ملازمة الظل. فلم أستطع أن أفهم كيف تودع الطبيعة في ذهن إنسان وفي قلبه أروع أخيلة الجمال، ثم تبتليه في الوقت نفسه بحياة مكفهرة دميمة وضيعة، تناقض كل لون من ألوان السحر، وكل صورة من صور الجمال؟ ويظهر أن الطبيعة لا تعطي إلا لتأخذ، ولا تمنح

إلا لتحرم. ولقد حرمتني المال ومنحتني بدلًا منه الخيال والوهم، فكنت سعيدًا، أو بمعنى أصح أردت أن أكون برغم أنف القدر سعيدًا، ولكنه كان لا بد لي مع ذلك أن أعيش. فحاولت أول ما حاولت أن أعيش من قرض الشعر، غير أن الناشرين أوصدوا أبوابهم في وجهي؛ لأني كنت خامل الذكر مجهولًا. فحاولت أن أعمل موظفًا في شركة ففشلت، فاشتغلت في النهاية حمالًا في إحدى المحطات، فخانتني قواي، وعز علي أن أنزل بشخصيتي المهذبة الرقيقة إلى مثل هذا الدرك، فلم أستطع مواصلة العمل أكثر من شهر واحد، تركت بعده المحطة وأنا اعتقد اعتقادًا راسخًا أن لا جدوى لأي شاعر من مغالبة الحظ ومعاندة القدر.

والحق أني كنت شابًا جميلًا بل ملحوظ الجمال. وهذا التناقض بين جمالي وبؤسي كان يحز في صدري ويملأ قلبي لوعة وحسرة. والغريب في أمري أني كنت أؤمن أن القدر لا بد أن يحابيني لجمالي، وأن من حقي على القدر –وقد وهبني الجمال والعبقرية– أن يهبني الحظ السعيد في يوم من الأيام، كي تتم علي نعمة الدنيا. وكان المال هو كل ما أطمح إليه، كنت أتمنى لو أصبح بين عشية وضحاها رجلًا ثريًا، كنت أود أن أحيا ولو فترة من الزمن حياة الكبراء والعظماء، فأقيم في قصر منيف، وأتجول في سيارة فخمة، وأحظى ببعض النساء الجميلات، وأعاقر الخمر، وأنفق عن سعة كأمير مدلل لا يكاد يشتهي شيئًا حتى يراه طوع يديه!

ولكن آمالي الكبيرة، وأحلامي العريضة لم تستطع أن تنقع غلة نفسي، وتنقذني من وطأة الفقر. فلما أعياني البؤس اضطررت أن أشتغل

رئيس خدم في أحد الفنادق، وكانت هذه المهنة شاقة ومرهقة. فقد كنت مجبرًا على أن أظل واقفًا على قدمي طوال نهاري وجزءًا كبيرًا من ليلي، إلى حد أني أوشكت أن أصاب بالروماتزم واللمباجو، فطفقت أفكر في مخرج لي من هذا العمل، وشرعت أداعب الوهم والخيال أيضًا، ومضيت أبتاع أوراق اليانصيب عساي أن أخدع القدر، وأقهر الحظ، وأصيب ورقة رابحة، تمكنني من تحقيق حلمي المنشود.

ولم أكن شابًا غبيًا بل كنت رجلًا واسع الخيال، راجح الفكر ذكيًا. كنت أعلم اليقين أن السعادة لا يمكن أن تدوم، وأن الحظ لن يبتسم في العمر غير مرة، وأنه خير للإنسان متى امتلك الحظ أن يفكر في اليوم فقط، وأن يسعد اليوم فقط، وأن يثأر من حظه التعيس القديم بأن يبدد حظه السعيد الجديد في التمتع كما لو كان سيدركه الموت غدًا. تلك كانت الفلسفة التي احتلت عقلي، وملكت على قلبي؛ لفرط ما عانيت من بؤس وقاسيت من ألم وحرمان!

لذلك أقسمت فيما بيني وبين نفسي أني لو ظفرت يومًا بورقة يانصيب رابحة تغدق علي المال فجأة، أن أنتقم لفوري من كل شيء، من حظي العاثر، ومن بؤسي الأسود، ومن حياتي الشقية، بأن أعيش كأمير مدلل أو سيد عظيم مدة شهر واحد، أتمتع في خلاله بذلك المال الوفير، وأبدده عن آخره ثم أنتحر!

والواقع أن فكرة الانتحار لم تكن لتخيفني؛ لأني كنت قد أبرأت ذمتي من نحو فني، ووضعت ديوان شعر اعتقدت أنه من أجمل وأروع

الشعر، وبعثت به مخطوطًا إلى دار الكتب، وملء نفسي اليقين بأني لو انتحرت، فلا بد أن يطبع الديوان بعد موتي فيخلد اسمي وعبقريتي.

ومرت الأيام متثاقلة رتيبة مضجرة، وأفقت ذات صباح وإذا بي قد أصبت النمرة الكبرى، وربحت في لحظة مبلغًا كبيرًا من المال، لم أكن لأتوقعه أو أحلم به أبدًا. فاختلط عقلي، وتاه فكري، واستولى علي فرح جنوني لا يوصف، ولم أتمهل وبدأت في تنفيذ خطتي.

قدمت استقالتي إلى صاحب الفندق شامخًا معتزًا متحديًا، ثم أسرعت وابتعت بذلة أنيقة، وقبعة جميلة، وعصا ممشوقة، وحذاء لماعًا، وقميصًا أبيض من الحرير الخالص، وأردت أن أتشبه بالسادة الأثرياء الوجهاء، فاشتريت محفظة من الجلد الناعم حشوتها بالأوراق المالية، ثم استأجرت لمدة شهر سيارة فخمة، وانطلقت بها إلى أعظم حي من أحياء اللهو في المدينة.

ونزلت في فندق مشهور، واتخذت لي غرفة من غرف الدرجة الأولى، وما إن أقبل الليل حتى جلست إلى مائدة (الروليت) وطفقت أقامر في حذر فربحت. فلم أشأ أن أسرف في المقامرة خشية أن يغدر بي الحظ قبل أن أرغمه على الخضوع لمشيئتي. فتركت قاعة الميسر وطلبت خمرًا، فانحنى أمامي رئيس الخدم ثم جاءني بنبيذ معتق أصيل، فخيل إلي أن عقلي قد طار شعاعًا.

وتألب علي رهط من الحسان بين غانيات وعاملات وموظفات وطالبات، فخيل إلي أني حقًا أمير، وأني أمرح في قصر من قصور ألف ليلة.

وكنت أنفق المال في فرح غامر مخبول، ولكني مع ذلك كنت مضطربًا، كنت تائهًا، كنت قلقًا، أشعر أن ذهني متبلد، وقلبي حائر، وروحي خاوية. لم أحس تلك النشوة الجارفة التي كنت أعلل بها نفسي أيام البؤس والشقاء!

كنت شاعرًا، متقد العاطفة، مرهف الوجدان، مشبوب الخيال، فأحسست أن شيئًا عميقًا ينقصني، شيئًا لا يمكن أن يكون للحياة أي طعم بدونه، ولا أية قيمة إلا به. وهكذا هفت نفسي إلى الحب!

وفي اليوم الثالث، أعرضت عن سر الملذات جميعًا، وطفقت أبحث عن الحب، وكنت متعطشًا، كنت ملهوفًا، كنت أود أن أسرع باقتناص السعادة الكبرى قبل أن أموت..

فجعلت أقلب الطرف فيمن حولي من نساء، علي أظفر بالمرأة النادرة المنشودة التي في وسعها أن تهبني متعة خارقة يهون علي بعدها توديع الحياة بثغر باسم وقلب مطمئن. وكنت قد تعرفت إلى فتاتين من نزلاء الفندق، إحداهما طالبة جامعية شقراء، والأخرى غادة رشيقة سمراء، تحريت عنها فعلمت أنها بنت أحد الأعيان. وكانت الطالبة الجامعية الشقراء فقيرة ومثقفة، تحبني حبًا جمًا، ولا تفتأ تلاحقني وتطاردني وتحوم حولي، ولكن جمال الفتاة السمراء كان قد بدأ يؤثر في نفسي ويخلبني. كانت صبية رائعة الحسن ذات شعر أسود غزير، وجبهة عريضة ناصعة، وعينين واسعتين متقدتين، وأنف مستقيم، وفم دقيق، وشفتين حمراوين شهيتين، تومض من خلالهما أسنان براقة لامعة كأنها الدر المنظوم.

هذا الجمال الأنثوي الناضر الملتهب المشوب بالكبر والدلال، كان يناقض جمال الفتاة الجامعية الهادئ الفاتر الناعس المشوب بالحلم والخيال، فشاقني بالطبع سحر الأنوثة الناضرة المتوقدة، ولم أحفل لحظة واحدة بفتنة الحلم والخيال.

ومع ذلك فالطالبة الشقراء التي أعجبت بذكائها وقرأت عليها بعض أشعاري، كانت تقدرني، وتفهمني، وتحبني؛ لا لنفسها فقط، بل لمستقبلي الأدبي أيضًا، ولما تريده لي من شهرة ومجد. ولكني كنت أنفر منها لهذا الذكاء نفسه.

كنت أريد أن أتمتع لا أن أفكر، وكانت الطالبة الشقراء تعلم أني أنفر منها بل أكرهها، وأعشق غريمتها السمراء عشقًا عنيفًا مبرحًا، غير أنها لم تيأس، وظلت تلاحقني، ثم اقتحمت علي مخدعي ذات مساء وقالت لي: "أنا أعلم أنك تحب تلك السمراء الجميلة، ولكنها ليست من طبقتك. ولا في مستوى ذهنك. وأنت إذا حكمت عقلك، ولطفت من سورتك، ونظرت جيدًا حولك، فلن يكون من العسير عليك أن تجد الفتاة المتزنة الرصينة التي في وسعها أن تخلق لك الجو الصالح لعملك، وأن تجعل منك شاعرًا ماجدًا عظيمًا يشار إليه بالبنان!".

فأرسلت قهقهة مدوية، ونظرت إلى الفتاة، ولم أقنع. كان جمال الصبية السمراء قد استحوذ علي، وبهرني، وخالط مني العقل والحواس. فصرفت الطالبة الشقراء بعد أن سخرت منها، وتهكمت بها دون رحمة، ثم ارتميت في حب غريمتها بكل قوى ظمئي وتلهفي وحرماني.

وكنت أعلم أن الفتاة السمراء ليست من طبقتي. فكنت أحبها

وأهابها، أندفع إليها وأخاف منها، أخالسها النظر دون أن أجرؤ على مغازلتها، أتمنى قربها ولا أستطيع أن أتصور لحظة واحدة أنها يمكن أن تكون يومًا لي. والواقع أنها كانت مخطوبة إلى وجيه ثري جاوز الخمسين، وأفنى شبابه في العبث واللهو، فلما تعرفت إلي أنا الشاب الجميل، صبا قلبها إلى الحب والحياة، فقربتني ولاطفتني.

فتشجعت، وآليت على نفسي أن أتغلب على خطيبها، وأفوز بحبها ولو ميقات أيام معدودة، أخالس فيها السعادة وأشرف على النعيم، ومضيت أغازلها في صراحة وجسارة.

فأخذت بي، ورأت في شخصيتي الجمال والشباب والقوة وسحر الجاه العريض. فاضطرب عقلها، وتاه فكرها، وبدأت تعرض شيئًا فشيئًا عن خطيبها الكهل وتنصرف إلي، ولم أكد الحظ أنها تجاملني، وتؤثرني، وتقبل علي حتى جن جنوني ولم تعد تسعني الدنيا.

وأخذت أنفق عليها بلا حساب، وأغمرها بالهدايا، وأمنحها كل ما تشتهي، وأطارحها الحب في ألفاظ خلابة، وعبارات شائقة، وجمل منمقة، وعواطف مشبوبة، سلبت لب الفتاة ودهشت أنا نفسي من حرارتها المتقدة، وصدقها العميق.

وكانت الطالبة الشقراء تراقبني عن بعد وتتعذب، ولكني كنت مفتونًا بالسمراء، مأخوذًا بها، متيمًا بهواها، مسلمًا قلبي وعقلي إلى حبي الأول والأخير!

ومر الأسبوع تلو الأسبوع، ثم جاء الأسبوع الأخير الفاصل، فانقضى يومه الأول في اضطراب، ويومه الثاني في قلق، ويومه الثالث في خوف، ويومه الرابع في ذهول.

وتقلص المال شيئًا فشيئًا، وتبدد الوهم، وبرز الواقع. فأحسست أن حسرة عميقة تمزقني، وأنه لم يعد أمامي غير يوم واحد فقط، علي أن أستمتع به ثم أموت!

وفجأة، وعلى دهش مني، اضمحلت قوتي، وخار عزمي، وانحلت إرادتي، واستحوذ علي ذعر هائل يشبه الخبال!

ملكتني فتنة الدنيا. بهرتني أضواء الحياة، عز علي أن أموت بعد أن عرفت نعمة الحب! وبقدر ما كنت أنشد الموت، أصبحت أتشبث بالحياة! أردت أن أعيش بقرب فتاتي السمراء، وأن أشيخ بقرب فتاتي السمراء، وأن أموت ولكن بعد عمر سعيد مديد بين أحضان فتاتي السمراء!

وفي اليوم السابع والآخير، والفتاة السمراء جالسة في زاوية قصية من شرفة الفندق تنتظر مقدمي، والطالبة الشقراء البائسة المنبوذة ترمقها عن بعد وتتلوى حسرة ولوعة وكمدًا، أقبلت أنا وفي عزمي أن أتكلم، أقبلت ممتقع الوجه، محني الرأس، مسلوب الحول، واتجهت بخطى وئيدة صوب فتاتي السمراء.

وتلفت بغتة فلمحت الكهل الثري مقبلًا خلفي فاضطربت

وتراجعت، وقام في نفسي أن أخنق الحقيقة في صدري، وأعدل عن الكلام، حاولت، حاولت جهدي. ولكني لم أستطع! كنت واثقًا من أن الفتاة تحبني، ومع ذلك فقد شعرت أن الدنيا تضيق بي على رحبها، وأني أتخبط بين اليأس والأمل وأود ان أستقر على شيء حاسم لأستريح. فحزمت أمري وتقدمت، دنوت من فتاتي السمراء، وعلى مسمع من غريمتها، ومن الكهل الثري، قلت لها في صوت مختلج متهدج جهير:

"أنظري إلي! أنعمي النظر في جيدًا! هل في سماتي وملامحي ما يدل على أني رجل عظيم؟ الحقيقة أني لست وجيهًا ولا ثريًا، بل لست شيئًا مذكورًا. أنا.. أنا رجل فقير!".

فتطلع إلي الكهل متعجبًا، وأنصتت الطالبة الجامعية الشقراء إلى كلامي ذاهلة، وفغرت فتاتي السمراء فاها كبلهاء. ولكني تماسكت وتشجعت واستطردت: "لم أعد أملك نقودًا تكفيني لتناول طعام العشاء هنا هذه الليلة! لقد عشت بائسًا محرومًا، فجربت حظي، فربحت ورقة يانصيب كبيرة، ثم جئت إلى هذا الفندق لأتمتع وأنفق في شهر واحد كل ما ربحت! ولقد أحببتك يافتاتي المعبودة السمراء، وأنفقت عليك كل مالي، فبادلتني حبًا بحب، أليس كذلك؟! فأنت الآن، وبعد أن عرفت حقيقتي، أصبحت مطلقة الحرية في اختيارك، فإما أن تستجيبي لنداء قلبك إذا كنت حقًا تحبينني لنفسي، وإما أن تستجيبي لنداء طبقتك وتؤثري المال والجاه على الحب!".

فنهضت فتاتي السمراء بنت الأعيان المترفين المستكبرين،

وحدقت إلي وهي تشتعل غضبًا، ثم صاحت ورأسها الشامخ ينتفض: "إذن فقد خدعتني؟".

فتمتمت: "خدعتك بمظهري، ولكني لم أخدعك بقلبي!"، فهتفت وهي تزفر: "وما صناعتك؟"

فأطرقت برأسي وغمغمت: "كنت رئيس خدم في أحد الفنادق، ولكني في الحقيقة شاعر خامل، وجد فيك عروس شعره يا معبودتي!".

فانفجر الكهل الثري ضاحكًا، وظلت فتاتي السمراء مأخوذة مبهوتة، تردد في استنكار وحنق: "خادم وشاعر؟ إنها منك لوقاحة بالغة أن تجرؤ على مغازلتي وتتقدم لطلب يدي أيها النذل الحقير!".

فوثبت الفتاة الشقراء من مكانها، ودنت مني، وربتت بيدها على كتفي، وظلت واقفة بجواري تحدق إلى غريمتها بعينين متقدتين وتلهث.

أما أنا فقد جمد الدم في عروقي، وعقد الخزي لساني، وشعرت في مثل لمح الطرف أن كل عواطفي قد تبدلت على الرغم مني. كنت شاعرًا، مرهف العصب، شديد الكبر، سريع التأثر والتحول. فلما أهانتني تلك الحسناء التي كنت أثق فيها وأعبدها، وجرحت كرامتي، استهولت ذلي وعاري، وانقلب حبي العنيف لها إلى بغض عميق.

وما كدت أن أبغض حتى أحسست إحساسًا طارئًا عجيبًا بأني إنسان، إنسان آخر، إنسان لا بد له أن يعيش! أحسست تحت وطأة الاحتقار والإذلال أني رجل، وأني يجب أن أكون أقوى من الحب،

وأقوى من البؤس، وأقوى من الحياة، إذا شئت أن أرد اعتباري لنفسي، وأجبر الكبراء والعظماء على احترامي، وأفهم أن السعادة ليست في المال، ولا في التمتع، ولا في طلب الموت فرارًا من القدر، بل في مغالبة الطبيعة، ومصارعة الحظ، وتحدي القدر!

ورفعت رأسي، ودفعت الفتاة الشقراء في تبرم وعنف، وهممت بالخروج، ولكني لم أكد أتحرك حتى أسرع الكهل الثري فأمسك بي، ثم أكرهني على الجلوس بجواره، ثم دس يده في جيبه، وأخرج عقدًا من اللؤلؤ الرائع الثمين، لوح به في الهواء فترة، ثم قدمه إلى فتاتي السمراء وهو يهتف:

"هذه هدية عرسنا! إن هذا العقد يساوي أكثر مما أنفقه هذا الشاب لا في شهره السعيد فقط بل في حياته كلها! فإن قبلت العقد يا آنسة عن طيبة خاطر، تأكدت أن حب شاعرك الصعلوك قد زال من قلبك ورضيت أن أتزوجك، وإلا فسأرحل أنا أيضًا الليلة، بل الساعة! ففكري وتعقلي وتخيري!".

فتقدمت الطالبة الجامعية الشقراء وشخصت إلى العقد، واشرأبت نحوه بعنقها، وفتحت حدقتيها اللامعتين، واصطنعت اللهفة والذهول والإعجاب، وهي تميل إلى غريمتها السمراء، وتومئ بيدها المرتعشة إلى الحبات الناصعة كأن روعة العقد قد فتنتها وصرعتها. ولكن فتاتي السمراء كانت زائغة العينين، حائرة، شاردة، تفكر وتتردد، فأدركت أن في قلبها بقية من حبي، فكدت أنسى الإهانة، وأضعف، وأحن إليها، ولكنها تحركت فجأة واتجهت صوب الكهل.

فلمعت عينا الطالبة الشقراء، وأبصرت أنا فتاتي، فتاتي السمراء الغادرة تمد يدها، وفي مثل لمع البرق، وقبل أن يتغلب عليها حبها، تسرع باختطاف العقد وتشير بإصبعها إلى الباب، وتصيح في وجهي بصوت هادر أجش: "اخرج! اخرج حالًا!".

ثم اختلجت اختلاجًا عنيفًا، وألقت علي نظرة فيها مزيج من الحسرة والحنق، وأوشكت أن تبكي. فأيقنت أنا أنها ما تزال تحبني، وما تزال برغم طمعها متعلقة بي، فكبحت جماح نفسي، ولم أدع فرصتي السانحة تفلت مني، وأردت أن أقهر الغادرة وأذلها، وأعاقبها، وأثأر منها. فاندفعت نحوها وأمسكت بذراعها، وقلت لها في صوت واضح المخارج، باتر النبرات: "كلمة واحدة فقط، فاتني أن أصارحك يا آنسة بأمر خطير، فأصغي إلي. كنت قد عاهدت نفسي فيما لو ظفرت بالورقة الرابحة أن أتمتع بالحياة شهرًا كاملًا ثم أنتحر. فلما رأيتك، أحببتك حبًا عظيمًا، وأحببت الحياة من أجلك. أما الآن وقد عرفت حقيقتك، وتحطم الخيال الذي كنت قد قدسته فيك، فلم تعد الحياة ذات قيمة عندي! لماذا يجب أن أعيش؟ وفي سبيل من يجب أن أعيش؟ ينبغي أن أفي بعهدي لنفسي، وأودع الحب والأمل والحياة، ينبغي أن أموت!".

وتفرست فيها لحظة ثم غافلتها وانتزعت مسدسي من جيبي،وصوبته إلى صدري. فأرسلت الطالبة الشقراء صيحة مدوية، وتشبثت بذراعي. أما الفتاة السمراء فقد روعت، واختبلت، واستفاق حبها على الرغم منها.

فأسرعت وألقت بالعقد إلى الكهل المنكمش المبهوت، ثم احتضنتني ملهوفة، وصاحت: "لن تموت من أجلي! أنت، أنت هو حبيبي! وأنا زوجتك!".

فشحب وجه الفتاة الشقراء شحوبًا مخيفًا، وهب الكهل الثري واقفًا، وصرخ في وجه خطيبته وهو يدس العقد في جيبه: "أنت تحبين هذا الشاب، ومن المحال أن أرضى بك زوجة لي! لقد تم اختيارك وانتهى الأمر، فالوداع". واتجه صوب الباب وانصرف دون أن يحيينا.

وقبل أن يختفي عن أبصارنا، أبرقت عيناي، وانبسطت أساريري، وأومض محياي عزة وشماتة وظفرًا، ثم أرسلت ضحكة قاصفة، واندفعت نحو الفتاة الأخرى، نحو الطالبة الفقيرة الشقراء، مقدرًا وفاءها، فخورًا بثباتها، نادمًا على تعذيبها، وقلت لغريمتها ساخرًا متهكمًا: "هذه الفتاة هي زوجتي!".

وطوقت الطالبة الشقراء بذراعي، فروعت السمراء الغادرة وذهلت، ثم تهاوت على نفسها، وأجهشت بالبكاء.

ولما اقترنت بالشقراء، وعشت معها، أثرت فضائلها الرائعة في نفسي تأثيرًا عظيمًا. فوجدت فيها الضالة التي كنت أنشدها، فأحببتها مخلصًا متفانيًا، وتغنيت بها في هذه القصيدة التي طوعت لي الحظ، وجعلتني بين عشية وضحاها شاعرًا نابغًا مرموقًا.

وهذا ما قلته في زوجتي، وما أستلهمته من جبينها المشرق الوضاح الذي رأيت فيه رمز طهرها وعفافها وجمالها:

"جبينك الوضاح قطعة من الشمس استقرت على طاقة من الأزهار

جبينك الوضاح تاج نظمته الآلهة الرحيمة من لآلئ البحار

جبينك رحمة ومجد وجلال وإشراق!

إن نور جبينك ليتألق ويصب أضواءه على بدنك النقي، كالثريا علقت فوق هيكل

وإني لأخشع أمام هذا الجبين كما يخشع المسافر ضل في الليل طريقه، ثم أبصر فجأة وجه الصباح!

جبينك الساطع العريض يكمن فيه الفكر كما يشع منه العفاف

جبينك المرمري يتحكم في غرائزك، ويتسامى بكيانك، ويجردك من كل شهوة وضيعة، ويباعد بينك وبين شرور الناس!

ولقد طالما حيرني منك صفاء جبينك، وصرفك عني، وانتزعك من بين ذراعي، وألحق روحك وجسدك على الرغم مني بالملأ الأعلى

أنت لست امرأة ولا ملكًا

أنت أكثر من ذلك بكثير

أنت آلهة جنت فغافلت أترابها، وفرت من العالم الآخر، ثم اصطفتني من دون الرجال طرًا واجتبتني؛ لتبني معي على هذه الأرض صرح الحقيقة وملك السماء!"

الفصل العاشر
مأساة إنسان

وسألتها إذا كانت تحبني، فأطرقت ولم تجب، ثم نهضت بغتة واتجهت نحوي ومدت ذراعها الرخصة، وصافحتني وهي تضغط على يدي. ومنذ ذلك اليوم تبدلت حياتي، أومض عقلي وتفتح ذهني وبدأت أكتب القصص.

الروائي الهندي

محمد ك. خالد

غرام الروائي الهندي محمد ك. خالد

هذا الكاتب الهندي شاب في نحو الثلاثين، عاش في مأساة، واشتغل فترة طويلة ساعي بريد، ثم نبغ في فن القصة بعد أن عرف المرأة، وسعد وتعذب واختبر. وهذه مأساة حياته كما صورها بنفسه. وهي مأساة عجيبة قل أن وقع مثلها لمخلوق.

قال الكاتب:

من أنا؟ أنا أضحوكة الناس جميعًا!

إني سرت، وحيثما حللت ترمقني العيون بالنظر الشزر، ثم تنفجر الضحكات في وجهي وتغيبني في لجة من العار والذل. الجميع يقصون

عني أغرب القصص، ويتخذون من مظهري وحياتي أداة لتزجية أوقات فراغهم، ووسيلة للترفية عن نفوسهم، نفوسهم القاسية الغليظة التي لم تتطرق إليها الرحمة أبدًا!

وبعد، فما هو وجه الغرابة في حياتي؟ أنا إنسان كغيري، إنسان أحب واحتمل وتعذب واستطاع آخر الأمر، واأسفاه، أن يقترن بالمرأة التي أحبها! ولكن لا، ما كان ينبغي لرجل مثلي أن يتزوج ويسعد ولو لحظة واحدة! هذا في نظرهم كثير علي! هذه نعمة أجمع الكل على أني لا أستحقها!

إنهم يقولون: انظروا إليه، أهذا إنسان؟ أهذا مخلوق يمكن أن يخفق فيه قلب وينبض إحساس؟ إنه أشبه بالقرد منه بالإنسان! وما قصته إلا فلتة من فلتات الطبيعة، لم تقع في الحياة غير مرة، ولم يسمح بها القدر إلا لتصبح أضحوكة العالمين!

هذا ما يقولونه عني، وبهذه الروح يروون قصتي، ومع ذلك فأنا أشعر أني إنسان، وأشعر أني لا بد أن أروي قصتي بنفسي، لأقنع الناس ونفسي أني وإن كنت قردًا إلا أن لي روح شاعر وقلب إنسان!

فليسمع العالم إذن قصتي، قصة رجل لم ترحب به الحياة إلا لتطرده، ولم تبتسم له إلا لتطعنه، ولم تشفق عليه إلا لتمزقه، ولم تقدم له الحب في كأسها الطافحة إلا لتجعل السم في صبابة الكأس زعافًا صاعقًا مدمرًا!

هو ذاك، أنا رجل دميم! دميم دمامة القدر الغاشم! رجل أسود كالحبر، مستطيل كعمود من خشب، غائر العينين، مدلى الأذنين، منسحق الوجنتين،

أفطس الأنف، مشقق الشفة، نقر وجهي الجدري، وانكسرت ساقي ذات يوم وأنا طفل أحاول سرقة ثمرة فجة من حديقة الجيران، فأصبحت أعرج كسيحًا أجر نفسي كأني أجر تمثالًا مروعًا للقبح والمذلة والعار!

أجل، أنا في نظر الناس قرد، ولكنهم لا يضحكون مني لأني قرد؛ بل يضحكون لأن القرد غافل الطبيعة، واستطاع أن يخدعها ويتخذ شكل إنسان!

على أن بعضهم أشفق علي وشبهني بأحدب نوتردام، غير أني لست بأحدب، وهذا على الأقل فوز ملحوظ يثلج صدري وإن كنت أحس أن الغرض منه هو مضاعفة تحقيري وإذلالي.

ما أكثر ما تعلمت من ضحكات الناس، وما أكثر ما تعذبت وشقيت، كنت كلما التقيت بفتاة، سواء أكانت دميمة أم جميلة، لوت وجهها عني كما يفعل البرهمي عندما يبصر طيرًا يعتقد أنه نذير شؤم، فكنت أتمنى لو تميد بي الأرض وتطويني، فأصبح في مثل لمح الطرف، أقوى من السخرية وأقوى من الذل.

والحق أن الجنون كان يعصف بعقلي كلما كنت أشعر أني منبوذ من الناس، وأنهم لا يعترفون بي كواحد منهم. في حين أني كنت أحب الحياة مثلهم، وأهوى الجمال مثلهم، وأتمنى على الله ولو لحظة أن أخالس في ظلمة فكري ونفسي وحظي أضواء آمالهم وأحلامهم.

نشأت في قرية هندية يدين أهلها بالإسلام، وفي وسط شعبي فقير. لم أعرف والدي الذي توفي وأنا طفل، فشببت وترعرعت بجوار أمي،

ألعن الحياة، ولا أدري لماذا جئت إلى هذه الدنيا.

كنت ألعن الحياة ولكني كنت أؤمن بالله، وأحب أمي.. كنت أشفق عليها من وجودي ومن رؤية وجهي، وأفهم عذابها الشديد كلما رفعت إلى عينيها الحزينتين وراحت تتأملني، على أنها ألفت على مر الزمن صورتي، فكانت تبتسم لي وتضاحكني، مما جعلني أتساءل هل هي تكبح جماح نفورها لتسري عني، أم أني قد أصبحت بالفعل إنسانًا يستحق المجاملة والود والحب؟!

ولما جاوزت طور الطفولة، وشاء القدر الساخر أن يسكب على بدني رذاذًا من فيض الشباب، سعيت إلى كسب عيشي، فوفقت بعد جهد شاق إلى وظيفة "ساعي بريد" ففرحت أمي وابتهجت، ثم أنطوت على نفسها طويلًا، ثم خرجت من صمتها الحالم بغتة، وعادت تعابثني وتضاحكني وتقول لي وبصرها الأحسر يومض في وجهها المغضن المسكين، أنها لا بد أن تسعدني، ولا بد أن تبحث لي بين بنات القرية عن عروس خليقة بي.

وشرعت تزور بيوت الموسرين من الجيران كأنها تتحدى القدر، وتتصل في الوقت نفسه بالعجائز والصبايا من نساء الشعب، وتتحدث إلى الجميع في لهفة مخبولة عن فضائل ابنها الوحيد المعبود. ولكن بيوت الموسرين كانت لا تكاد تستقبلها حتى تلفظها. أما العجائز الفقيرات فكن يترفقن بها وينصتن إليها راثيات لحالها. وأما الصبايا بنات الشعب فكن يسخرن منها، ويهزأن بها ويشيعنها بضحكات قاصفة، لا تثير فيها نار الغضب إلا لتخمدها تحت وابل من عوامل الكمد والحسد والقنوط.

وضاقت السبل في وجه أمي، وأعياها البحث وأمضها العار، فاستولى عليها يأس حارق مذيب، برح بها واعتصر قواها، فماتت فجأة وهي صامتة ساكنة لا تحدثني عن المستقبل، ولا تذكر أمامي اسم امرأة أو فتاة، ولا تجري على لسانها أبدًا كلمة عروس أو زواج.

واختفت المرأة الوحيدة التي أحبتني في عالم لا حب فيه، والتي كانت تراني برغم قبحي جميلًا، والتي كنت أستمد منها قوة الأمل والكفاح والحياة. فبكيت عليها وعلى نفسي، ثم أوصدت باب قلبي على لوعتي، وعشت وحيدًا مستوحشًا نفورًا، مستغرقًا في عملي، أحمل رسائل الناس كأنها آمال محققة، وأضرب في الطرقات كمعتوه، وأوجس خيفة من ظلي، واعتقد اعتقادًا راسخًا أن لا مكان لي في مأدبة الدنيا، ولا حظ لي في الحب، ولا أمل في المرأة والزواج والأولاد.

وهكذا أمضيت بضع سنين، أتقلب في غمرة الوحدة، وأرتعد فرقًا من مواجهة المستقبل المجهول.

وفي ذات يوم من أيام الشتاء، يوم لن أنساه ما حييت، طرقت مسمعي دقات عصا على بابي، وترامى إلي صوت أنثوي: "حسنة يا سيدي!".

ففتحت الباب، وإذا بي تجاه فتأة متسولة، تنتفض من شدة البرد، وتمد إلي يدًا رخصة ناعمة وتبتسم لي وهي مرفوعة الرأس وبصرها الزائغ لا ينفك يحدق إلى السماء. وتأملتها، وأدركت لفوري أنها عمياء. فهجس في روعي صوت يقول: "صبية وعمياء؟! إنها لأسوأ حظًا منك! يجب أن تعتبر نفسك سعيدًا لأنك مازلت ترى النور!".

وكانت الفتاة رائعة الجمال في ثوبها المهلهل الملطخ برشاش الماء والطين، فأخذتني الشفقة عليها، ومددت إليها يدًا مرتعشة، وجذبتها في رفق إلى وسط الحجرة، وأجلستها على مقعد، ومضيت ألاطف خدها بأناملي، وأطيب خاطرها جهدي، وأنا أنعم النظر فيها وأختلج.

وكانت هذه أول مرة في حياتي ألمس فيها بدن امرأة.

كنت أرتجف كمن قد ساورته حمى، كنت أحس قلبي يخفق وأنفاسي تتعاقب، وركبتي تتخاذلان، فتمالكت نفسي، ورددت يدي، ونفحت الفتاة بـ (روبية) كاملة ثم ابتسمت لها، وقد نسيت أنها عمياء، والتمست إليها في صوت رقيق أن تبقى ولو لحظة في صحبتي، وأن تقاسمني طعامي.

وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، فقالت إن اسمها (ليلى)، وأنها تعيش مع أمها في كوخ بجوار منطقة المصانع، وأن مهنتها التسول، وأنها قل أن ظفرت بروبية كاملة من أحد المحسنين.

وتمزق قلبي وأنا أراها وأسمعها، فلما تهيأت لمغادرة حجرتي، رجوتها أن تزورني الوقت بعد الآخر ثم دسست في يدها روبية ثانية، فشكرتني، وهمت بأن تقبل يدي، وانهمرت من عينيها الدموع.

وألفت التردد على منزلي، فكنا نتحدث في موضوعات شتى، وكنت أشعر أن صدري يتخفف من حمله، وقلبي ينطلق من سجنه، والحياة بأسرها تستضيء أمامي وتبتسم لي.

وكنت أفكر دائمًا في عيني ليلى، وأقول في نفسي: "لو أنها كانت مبصرة لكانت ولا ريب من أجمل وأفتن النساء!".

ومع ذلك فقد كنت أراجع نفسي وأردد: "لو أن ليلى كانت مبصرة لما احترفت التسول، ولما طرقت باب منزلي، ولما كان في وسعها أن ترفع بصرها وتنظر إلى قبحي ودمامتي!".

وبدأ الناس يلحظون علاقتنا، ويتغامزون علينا. ولكن أغلظهم وأقساهم لم يستطع أن يحسدنا، وكيف كان يمكن أن يحسد الناس قردًا على حب عمياء؟! كانوا يغرقون في الضحك منا، ويتبارون في السخرية بنا، ويشيرون إلينا باعتبار أننا أغرب وأعجب عاشقين في هذه الدنيا.

وشيئًا فشيئًا توثقت بيننا عرى الصداقة، وخلصت روابط الود، فتشجعت يومًا، وكاشفت ليلى بعواطفي، وفتحت لها مغاليق قلبي، وسألتها إذا كانت تحبني، فأطرقت الفتاة ولم تجب. ثم رفعت رأسها وحاولت أن تحدق إلي، ثم نهضت بغتة واتجهت نحوي، ومدت ذراعها الرخصة وصافحتن وهي تضغط على يدي.

ومنذ ذلك اليوم تبدلت حياتي، أومض عقلي، وتفتح ذهني، واستعرت خيالاتي وأفكاري، وبدأت أكتب القصص، شعرت أن لي امرأة أردد اسمها، وغرامًا أضم عليه فؤادي، وفرحًا طارئًا سماويًا يجب أن أصونه بفكري، وأحميه بروحي، وأرد عنه كيد الكائدين.

وعرفت لأول مرة معنى السعادة، ولكني كنت في نشوة سعادتي شقيًا

غاية الشقاء، كنت أخشى أن يحدث الناس ليلى عن دمامتي، ويبغضونها في، ويقول لها بعضهم إني وحش في صورة إنسان. بيد أني كنت أثق في ليلى، وأهتف على الرغم مني أن من حسن حظي أنها عمياء لا تستطيع أن تميز بين الجمال والقبح، كما أنها لا تستطيع أن تميز بين النور والظلام.

وانفجرت عواطفي المكبوتة، وجاشت في نفسي مرارة حرماني الطويل، فاستجمعت قوتي، وحزمت أمري واعتزمت أن أتزوج بليلى.

وفاجأت الفتاة ذات مساء برغبتي، وأنا مسلوب الحول، طائر اللب، يدفعني الأمل ويمنعني الخوف. فرأيتها تطرق برأسها كعادتها، وأبصرت شفتيها الرقيقتين ترتجفان، فخيل إلي أني متهم ماثل أمام محكمة، وأن في يد ليلى مصيري، فإما حياة في ظل حب وحرية وفرح، وإما موت محتم في غيابة سجن مروع أبدي!

ورفعت الفتاة رأسها بعد لحظة طويلة، وشخصت إلي كأنها تتأملني، ثم قالت في صوت عذب رخيم وهي تجمع إلى صدرها العاري المهلهل:

"يقول الناس عنك إنك دميم، ولكن الناس أعدائي كما هم أعداؤك، وإذا كان أفضلهم يعيرك بأنك دميم، فأطيبهم وأتقاهم يعيرني أنا أيضًا بأني عمياء! ماذا يهمني من الدمامة أو الجمال؟! أنا لا أرى حولي شيئًا! وسواء أكنت مثال القبح أم مثال الحسن فعواطفي لم تتبدل نحوك أبدًا! إني أرى الناس ببصيرتي، وأفهمهم بروحي، وأقدرهم بقلبي"

ولقد رأيتك وفهمتك وقدرتك؛ لأني كنت وما زلت أتعذب مثلك، وكنت وما زلت أنشد الزواج مثلك، وكنت وما زلت أتوق إلى بصيص من نعمة الحب والحياة والنور، ولكن..

فهلع قلبي، ودنوت منها ملهوفًا وقلت:

– ولكن ماذا يا ليلى؟

فأطرقت برأسها ثم صرخت:

"الإنسان مهما كان فاضلًا، فهو قاسٍ وشرير، ولا يمكن أن يعطى إلا إذا أخذ!"

فحملقت فيها ولم أفهم، فاستطردت:

"لقد اضطررت أن أبيع نفسي لأجد كسرة الخبز لأمي ولي! كنت أقضي في التسول سحابة نهاري دون جدوى، فكان الجوع ينهش أحشائي، وكان الأشرار من الرجال يتربصون بي، فسقطت على الرغم مني، ولم أعد أثق في إنسان يشفق علي، إلى حد أني عندما عرفتك، ودخلت بيتك، ورأيتك ترحب بي، خيل إلي في مبدأ الأمر أنك تشبه الآخرين، وأنك لن تجود علي بشيء إلا بعد أن تتقاضاني الثمن! أما الآن فأنا احترمك، بل أجد فيك الرجل الوحيد الخليق بالاحترام!

إن حظي في يدك، فإما أن ترثى لحالي، وتغض عن ذنوب فرضها القدر علي واقترفتها بالرغم مني، وإما أن تلوي بوجهك عني وتأمرني بالرحيل!".

فانحنيت عليها وأنا أرتجف وطوقتها بذراعي، وقلت في صوت ثابت جهير:

"الله غفور رحيم يا ليلى، ومادام ضميرك لم يزل حيًا، وقلبك يهفو إلى الخير فأنت في نظري غير مسؤولة عن ذنوبك، المسؤول هو الشر المتأصل في قلوب الناس، آلامك قد طهرتك يا ليلى. فاقبليني زوجًا لك، وثقي أني لن أذكرك بالماضي أبدًا!".

فتألق وجهها، ورفت أهداب عينيها المتقرحتين، وانسابت يدها في رفق وأمسكت بيدي.

وظلت يدانا متعانقتين، وفراغ الحجرة من حولنا يؤنسنا، ويمتلئ شيئًا فشيئًا بأصوات ساحرة غريبة، كانت ترقصنا على نغماتها، وتهدهدنا على أمواجها، كأنها تخرج بنا من أسر الحياة، وتحملنا إلى رحاب الجنة!.

وكانت ثورة في القرية كلها يوم اقترنت بليلى، ورحبت بأمها العجوز، وأعلنت أن بيتي المتواضع سيضمنا نحن الثلاثة.

كانت ثورة حنق واستنكار وسخرية، لم يكف الناس عن السخرية بي والتندر بقصتي، والتعريض بامرأتي. ولكني لم أكترث لهم، وبدأت أتمرس بحياتي الجديدة، أشوق ما أكون إلى رد اعتباري في عين نفسي، ومصارعة القدر وإخضاعه لمشيئتي، والحرص جهد المستطاع على النعمة العظيمة التي أسبغها الله علي.

وكانت سعادة غامرة لم أحلم بها عمري، كانت سعادة رقراقة كالماء، ناعمة كالرخاء، حلوة ومنعشة ومسكرة كأضواء ربيع تنبثق فجأة من ظلمات شتاء.

وشاء الله أن يكلأني بعين عنايته، ويغمرني بواسع رحمته، ويتم علي عظيم فضله ونعمته، فوقعت المعجزة، وحملت امرأتي ووضعت غلامًا ذكرًا رائع الحسن، ما كادت تقع عليه عيني حتى ذهلت وأصابني من فرط الفرح شبه خبال.

أجل، أوشكت أن أفقد عقلي، فطفقت أهتف: "من ذا الذي قال أن نحس الطالع لا بد أن يلازمني؟ لقد أصبحت إنسانًا كغيري بل أسعد ألف مرة من كثيرين غيري! لقد أحببت وتزوجت من أحب وأصبحت والدًا! هذا من فضل ربي. إنه نعم المولى ونعم النصير!".

واستسلمت لسعادتي، وملكتها قيادي، ووثقت فيها، وآمنت بها، فختمت على بصري وبصيرتي، فلم أشعر، ولم أتنبه، ولم أفهم، لم أفهم قانون الحياة، لم أفهم حكمة الله، لم أفهم أن كل شيء إذا ما تم يجب أن ينقص، لم أفهم أني قد أستوفيت حظي من السعادة، لم أفهم أن كل نعيم في هذه الدنيا مصيره إلى زوال!

كانت امرأتي قد مرضت قبل الوضع بعدة أشهر، فاستدعيت طبيب القرية لعلاجها، فتأثر الطبيب عندما رأى أنها عمياء، وفحص عينيها أيضًا، وأمعن في الفحص، ثم قال فجأة وهو يبتسم لي ويربت على كتفي وكأنه يزف إلي بشرى:

"إن إصابة زوجتك في عينيها ليست كما كنت أظن إصابة مستعصية العلاج، العينان سليمتان ولكن عليهما سحابة كثيفة في وسعي بعملية بسيطة أن أزيلها وأرد لامرأتك نعمة البصر. على أني أؤثر ألا أجري هذه العملية إلا

بعد الوضع بثلاثة أشهر. فأصبر قليلًا، ولسوف تكون سعيدًا مرتين، سعيدًا بمولودك البكر، وسعيدًا برؤية امرأتك تسترد البصر وتستقبل الحياة والنور!".

فتطلعت ليلى إلى الطبيب مذهولة، وأشرق وجهها إشراقًا عجيبًا، وضمتني إلى صدرها وهي ترتجف. أما أنا فقد انخلع قلبي، وارتعدت فرائصي، وأحسست أن كلمات الطبيب تسدد إلى صدري، وتنفذ فيه كطعنات سكين!

ليلى تسترد البصر؟! تراني على حقيقتي؟! تشهد دمامتي وقبحي؟! أفي الإمكان تصور هذا؟ إنها من المحال بعد ذلك أن تحبني! لقد أحبتني أمس بالخيال والقلب والبصيرة والإلهام، فهل يمكن أن تحبني غدًا بالحقيقة والوعي والإدراك والنور؟

وغشيتني كآبة لا حد لها، واستبدت الهواجس بفكري، ومزق قلبي الخوف، ولبثت قلقًا محيرًا مذعورًا حتى وضعت ليلى طفلها، وارتمت بجمع كيانها في نشوة الأمومة، ولم تعد تذكر كلمات الطبيب.

واعتقدت أنا أنها قد نسيت تلك الكلمات المشؤومة فسررت وابتهجت، واستسلمت لتيار سعادتي، ولم تعد تسعني الدنيا. كنت سعيدًا بحبي وطفلي، وكانت سعادتي تكفيني، وكان يخيل إلى أن ليلى قد اكتفت هي أيضًا بسعادتها وقنعت. ولكن السعادة قاسية وشرهة وغادرة، السعادة تلهب كل آمالنا، وتغرينا بالأطماع الكبيرة، ولا تفتأ توسوس لنا أن ننشد المزيد، وهذا ما وقع لامرأتي.

لم تكد تستمتع بنعمة الأمومة، حتى هفت نفسها إلى نعمة النور! أرادت أن تظفر بكل شيء، أن تمتلك كل شيء، أن تطوع الحظ لمشيئتها، فترى ابنها، وترى زوجها، وترى جمالها، وترى الدنيا وتسعد بكل شيء!

وكانت تتلهف وتتحرق وتقول لي:

"اذهب بي إلى الطبيب! لا بد أن ازداد حبًا لك لو رأيتك، ولا بد أن تزداد حبًا لي واعتزازًا بنفسك لو رأيتني مبصرة بعد إذ كنت عمياء! افعل ذلك من أجل حبنا! من أجل سعادتك! بل من أجل امرأة مسكينة تعبد زوجها ولا تستطيع أن تراه، وتعبد ابنًا وحيدًا من زوجها المعبود، ولا تستطيع أيضًا أن تراه!".

وكانت كلماتها تسري في بدني كوقد النار، وتعصف بعقلي كريح الجنون، فكنت ألعن الطبيب وأفكر في الانتحار ثم أثوب إلى رشدي، وأذكر ولدي، وأذكر حبي، وأصر فيما بيني وبين نفسي على التزام الصمت، وسلوك سبل الكذب والمراوغة والخديعة والتضليل، كي لا أرد البصر إلى امرأتي، وأسومها النظر إلى وجهي، وأراها تدرك وتفهم أنها قد اقترنت برجل هو أشبه بوحش منه بإنسان!

ومضيت أراوغها وأماطلها وأكذب عليها، وأقول لها تارة أن الطبيب متغيب عن القرية، وأخرى أنه مريض. فكانت ليلى تبتئس وتصمت وتنتظر ثم تعود فتلح علي إلحاحًا متعاقبًا، وتضيق في وجهي السبل، وتظل تلاحقني بتضرعاتها وتوسلاتها وهي تقبلني وتبكي.

وشعرت أن لا مفر من أن أحزم أمري، وأقدم على عمل فاصل يضع حدًا لهذا الخطر المروع الذي يتهددني، فمن أجل سعادتي وسعادة امرأتي، أمعنت في الكذب والتضليل، ولذت بفكرة صبيانية ساذجة اعتقدت أن فيها خلاصي.

دخلت على ليلى ذات مساء، واصطنعت مظاهر اليأس والحزن والآسى، وقلت لها أن الطبيب قد مات، فأجفلت ليلى، وأمسكت بي، وراحت تشخص بعينيها المتقرحتين إلى وجهي، كأنها تحاول جهدها أن تنفذ إلى أعمق أعماق ضميري، وفجأة ندت عنها زفرة عميقة، ودفعتني في عنف، وأجهشت بالبكاء.

واستشعرت لفوري أنها قد أحست أني كاذب ومضلل وغشاش. فتماديت في دوري، وفقدت حكمي على نفسي، وطفقت أقسم لها أني صادق، وأقول وأردد كالأطفال أن طبيب القرية قد مات.

وصمتت ليلى، وانطوت على نفسها وصرفت اهتمامها إلى خدمة طفلها، وانهمكت في أعمال البيت، ولم تعد تحدثني عن الطبيب ولو من طرف خفي.

وخيل إلي أنها قد سلمت وخضعت، ولكني لم أطمئن. كنت أشعر بالرغم من ذلك أن هناك عاصفة تتجمع في أفق حياتي، فكنت أحاول أن أحطم جدار الصمت الذي احتمت خلفه امرأتي. ولكنها كانت ممعنة في صمتها، سادرة في هدوئها، مغرقة في عدم اكتراثها، تعيش في عالم مظلم مغلق لا أكاد أهم باقتحامه حتى أرتد عاجزًا منهوكًا، وقد ملكتني

الدهشة، واستبدت بي عوامل الحيرة والقلق والرعب.

وعبثًا حاولت أن أعرف ماذا تضمر امرأتي، فآثرت أن أضاعف من اهتمامي بها، ورعايتي لها، وحنوي عليها، عسى أن تقدر موقفي وتفهمني من تلقاء نفسها.

وكنت أنا في غضون ذلك أضع القصة، مصورًا بالرغم مني في جميع قصصي لونًا واحدًا هو الخوف، الخوف على السعادة من الضياع، الخوف على الحب من الفناء، الخوف على النهار المشرق الجميل من أن تغيب شمسه الساطعة كي لا تعود.

ومرت بضعة أيام في سكون مثير للريب والشكوك، وفي ليلة من الليالي، وبينما أنا راقد في فراشي على وشك الاستغراق في النوم سمعت ليلى بجواري تتنهد وتتململ وتتقلب، فلم اسألها عما يؤرقها، وأناخ على تعب النهار، ورحت في سبات عميق.

وفجأة صحوت كأن عقلي الباطن كان ما يزال مستيقظًا في قرارة نفسي، فتحسست الفراش وأنا أرتعش، فلم أجد أثرًا لليلى. فاندفعت وأيقظت أمها، فهبت العجوز من سريرها مذهولة، ودثرت الطفل بغطائه، وأسرعت فأوقدت النور، فأبصرنا باب البيت مفتوحًا، ومنديل ليلى ملقى على عتبة الباب.

وأدركت أنها قد انسلت من فراشي وغادرت البيت، فجن جنوني، وعدوت إلى الخارج، وطفقت أصيح: ليلى.. ليلى!.

وارتميت في جوف الظلام، ومضيت أنادي وقد بح صوتي، فاستفاق الجيران على صراخي، وأوقدوا مصابيحهم ولحقوا بي، وانطلقنا جميعًا في الأزقة والدروب المجاورة نبحث عن ليلى.

وما كدت أبلغ على رأس الجمع منطقة المصانع وأرى المصانع ، وأرى مساكن العمال حيث كانت تعيش عاملة فقيرة من صديقات زوجتي، حتى تراجعت مذعورًا وجمد الدم في عروقي، وأوشكت من فرط الدهش والرعب أن أسقط مغشيًا علي.

أبصرت ليلى وقد اصطدمت بأحد أعمدة المصانع، منطرحة على الأرض بجوار مسكن صديقتها، والدم ينزف من وجهها وخديها، والعاملة الفقيرة جاثية بالقرب منها، تضرب صدرها وتصيح وتولول وتستغيث.

وما إن رأتني العاملة حتى اندفعت نحوي ثائرة وصرخت: لماذل لم تجبها إلى سؤلها؟ لماذا قلت لها أن طبيب القرية قد مات؟ لقد ضاقت ذرعًا بكذبك، فاقتحمت الظلام وهي عمياء. جاءت لتستوثق، جاءت تنشد الحقيقة، وتسألني أن أستدعي إليها أي طبيب! هذا ما قالته المسكينة قبل أن تموت. انظر، لقد ماتت! أنت الذي قتلتها!

فأحسست دوارًا يطوح بعقلي، وظلمة كثيفة تغشى بصري، فانحنيت على ليلى، وضممتها إلى صدري وطفقت أصيح كمعتوه:

"كنت أشفق عليها من رؤية وجهي! كنت أريدها أن تظل عمياء لتظل سعيدة!".

ومادت بي الأرض فجأة، وعصفت بي الدوار. فتهاويت على نفسي، وسقطت فاقد الوعي بجوار جثة زوجتي!

ولما أفقت ورأيتني ممددًا على فراشي، والجيران يحيطون بي، وجثة ليلى مسجاة بالقرب مني، وأمها العجوز تشرق بالدمع وطفلي بين ذراعيها يصرخ وكأنه يلعنني، أيقنت أن كل ما بنيته قد ذهب أدراج الرياح، وأني سأعيش تسحقني الدمامة، وتنهشني الوحدة، ويفترسني اليأس وعذاب الضمير.

وأشرت إلى العجوز الثكلى فجاءتني تحمل ولدي، فأخذته بين ذراعي، وقبلته طويلًا وأنا أحبس دمعي. ثم رفعت بصري إلى العجوز، فتراجعت وأشاحت بوجهها عني، فجذبتها نحوي بالرغم منها، وضممتها هي أيضًا إلى صدري، وانحنيت فقبلت يدها الضامرة، وانفجرت من عيني الدموع.

ومنذ ذلك اليوم تبدل فني، وتغيرت قصصي، وشاعت فيها فلسفة جديدة لفتت إليها الأنظار.

وكانت روح هذه الفلسفة أن الإنسان لا يستطيع أن يظفر بأكثر من قسطه من السعادة، وأنه لو حاول أن يجبر الناس على النظر إلى الحياة بعينه، وأن يسعد من يحبهم على طريقته، فلا بد أن تستبد به أنانية جنائية، فيهلك من يحب ويهلك نفسه أيضًا!

وهكذا نجحت قصصي، وأحرزت أنا الشهرة والمجد، ولكن على أشلاء ليلى المسكينة زوجتي وحبيبتي!

الفصل الحادي عشر
أجنحة الرحمة

"إنني وضيع، وإنني حقير، وإن قوتي تخدمني أنا وحدي، وتفصلني عن العالم، وتجعل مني وحشًا كاسرًا، ولقد أدركت أن القوة الحقيقية هنا. عند الفقراء، في جامعة الألم، في رابطة المحبة، في نعمة الرحمة، في عظم التضحية".

المثّال الإغريقي براكسيتيل

غرام المثال الإغريقي براكسيتيل

هو ذا المثال العظيم (براكسيتيل) الذي ولد في بلاد الإغريق عام ٣٩٠ قبل المسيح، والذي اشتهر بإبداع أروع التماثيل وأكملها لآلهة الحب والجمال فينوس.

إنه الآن وقد تألق نجمه، واستفاضت شهرته، ينشد الراحة في ضاحية من ضواحي أثينا، ويجلس إلى صديقه الشاعر ديمتريوس، ويقص عليه محادثة عجيبة وقعت له في مستهل شبابه، وكانت هي الفاصلة في توجيه حياته وتموين عبقريته.

قال براكسيتيل:

"كان بيتي واقعًا في الجانب الشرقي من مدينة (أثينا) يطل على

الملعب الكبير، حيث يتلقى الطلبة العلم في الهواء الطلق، ويمارسون شتى ألوان الألعاب الرياضية الوقت بعد الآخر.

وكانوا يجلسون على المدارج في صحبة أساتذتهم وعدد كبير من الفلاسفة والأدباء والشعراء ورجال الفن، ممن كانوا يغشون الملعب في فترات الراحة بغية التمتع بالجدل الأدبي والنقاش الفلسفي، وتبادل الآراء في العلوم والفنون والآداب.

وكنت واقفًا على عتبة بيتي، وقد فرغت من نحت تمثال كبير للإله الجبار (هرقل)، أتأمل الشمس الغاربة ثم أسرح الطرف في هذا الجمع الصاخب، وأود أن أرتمي في غمرته عساي أن اهدأ وأنسى.

ولبثت أحدق إلى الجمع المحتشد وأنا أفكر فيها، في معبودتي (هيلينا)، ذات الشعر الأسود المموج، والجبهة البيضاء الناصعة، والعينين الحادتين الثاقبتين، والثوب الأبيض المهلهل، المرصع بشبه زهرات حمراء تحف بها خيوط متآكلة من الذهب الصناعي الباهت.

وشعرت فجأة أن عواطفي قد أخذت بمخنقي، وأن غرامي المشبوب يلهب صدري، وأن لوعتي العميقة تكاد تمزقني. فاستجمعت قوتي، وخرجت من بيتي، واندفعت صوب الملعب، في اتجاه المدرج الكبير حيث يجلس والدي.

وكان والدي الفيلسوف الشيخ (ديودور) منهمكًا في نقاش ديني، يلوح بذراعيه، ويضرب حافة المدرج بيديه، ويدافع عن نظرياته في قوة وحماسة وحرارة الشباب.

وما إن أقبلت عليه حتى استقبلني رفاقه هاتفين مهللين، فألقيت التحية عليهم، ثم جلست على المدرج، زائغ البصر، ساهمًا شاردًا. وأراد بعض رجال الأدب والفن أن يدخلوا السرور على قلبي، فشرعوا يداعبونني ويمطرونني سيلًا من الفكاهات والملح. ولكني لم أتحرك، ولم أبتسم، ولم أستطع أن أرى الدنيا إلا من خلال تلك اللوعة العميقة التي كانت تتصاعد من صدري نارًا متقدة، يوشك أن يذوب تحت ظلاها قلبي وعقلي.

واستشعر والدي الشيخ الفيلسوف عذابي فأشفق علي، واستأذن رفاقه، وانتحى بي ناحية قصية من الملعب ثم أجلسني بجواره، ومضى يتفرس في وهو يبتسم.

ولم أكد أرى ابتسامته الساخرة تلمع على شفتيه الضامرتين حتى ثارت ثورتي وصحت: "أتسخر مني وأنا أقاسي في هذه اللحظة شر ضروب العذاب؟".

فهتف الشيخ ضاحكًا: "وهل تعتقد لأنك أقوى من أمهر المصارعين في أثينا، أنك أقوى من الناس جميعًا بحيث يمكنك أن تجنب نفسك وطأة العذاب البشري. العذاب مقدر على الإنسان مهما كان قويًا، وهو حظه المرصود له في لوح الأبد! ولولا الألم والعذاب ما عرفت الإنسانية معنى الكفاح، وسر الخير، وفضيلة التعاون، وقيمة التضحية، وشعور الرحمة!".

فقطبت حاجبي وصرخت: "الرحمة ملاذ العبيد والضعفاء، وأنا لست عبدًا ولا يمكن أن أكون ضعيفًا!".

فتقبض وجه الشيخ بغتة وصاح:

"وهذا هو سر عجزك حتى اليوم عن إبداع العمل الفني العظيم! أتظن أن في وسعك أن تكون فنانًا عبقريًا، وأنت إنسان متحجر العاطفة لا قلب له؟ إن العقل وحده لا يكفي، وكل فن ينهض على العقل وحده مصيره المحتوم إلى فناء".

انظر، انظر إلى هناك! إلى تمثالك الجديد، تمثال الإله الجبار هرقل. ثم انظر إلى تماثيلك القائمة هنا حول الملعب، أفي أي واحد منها رجفة من عاطفة أو نسمة من حياة؟ إنها منحوتة في مهارة عقلية خارقة، ولكنها محض أجسام ضخمة صلبة غليظة، لا لحم فيها ولا دم ولا إحساس!

أنت صانع فقط ولكنك لم تصبح بعد فنانًا يا بني.

فارتعدت فرائصي، وتشبثت بالشيخ وصرخت: "لو لم تكن أبي لقتلتك!"

فهز الشيخ كتفيه وقال وهو يبتسم: "أولى بك أن تعيش، أن تحب، أن تتعذب، لتعرف معنى الألم وقيمة الرحمة".

فصحت من أعماق قلبي: "ولكن الحب برح بي، وسهدني وأرقني، وأحالني كما ترى إلى شبه هيكل من عظام".

فقال الشيخ مقهقهًا:

"لا، إن ما يعذبك هو الكبرياء لا الحب، أنت لا تحب هيلينا، أنت تحقد عليها فقط. ولو أنك كنت حقًا تحبها لأنكرت نفسك، وضحيت

بشخصك في سبيل إسعادها ولو على يد رجل غيرك! أنت مغيظ محنق ناقم؛ لأن الفتاة أعرضت عنك أيها المثال الأرستقراطي المتعجرف الواسع الجاه والثراء، وفضلت عليك فلاحًا فقيرًا وضيعًا من طبقتها".

فغلى الدم في عروقي وهتفت:

"حسبك تقريعًا وفلسفة! الحقيقة أن حبي مزيج من العشق والكبر والحقد. ماذا؟ أيتقدم شاب مثلي إلى تلك الفتاة الحقيرة فترفض؟! ما أصلها ومن تكون؟! أليست ابنة الفلاح (مينوس)؟ ذلك الرجل البائس، المعدم الذي يعمل في مزارعنا، ويعيش من فضلنا، ويقتات من خيرات أرضنا؟ لطالما أشفقت عليه ومددته بالمال، وحاولت أن أجعل منه المستأجر المفضل في مزارعنا، و..."

"ولكنك أردت أن تتقاضاه الثمن غاليًا، أن تجبره على أن يزوجك ابنته بالرغم منها! ما حيلته فيها وهي تحب ذلك الفلاح المدعو (سولون)؟ إن مينوس والد شهم، تأبى عليه شهامته إلا أن يحترم إرادة ابنته ويقدر عواطفها وحريتها!

لقد صارحك بكل هذا، فلما دب في قلبك اليأس شرعت تستبد به، وتطالبه بما لك من دين عليه. فلما رأيته عاجزًا عن الدفع، وضعت يدك على غلاله، واستوليت على ماشيته، وجردته من كل ما يملك، ثم طردته من أرضنا دون رحمة هو وابنته وولده الصغير المريض.

فقلت مرعدًا وقد ملكني الغيظ والكمد: "وسأطارده وأطرده من

المدينة كلها، لن أمكنه من العثور على أي عمل، لن يعرف ذلك الوغد متعة الراحة والهدوء أبدًا!".

فصرخ الشيخ مستنكرًا:

"إنك لمثال الغلطة في حياتك كما أنت مثال الغلطة في فنك! لا تدع الكبر والحقد يختمان على بصرك، فكر في حظ ذلك المسكين! إنه اليوم أتعس مخلوق، إنه يعيش في كوخ تأنف سكناه الكلاب، ويمد يده للأجراء من الفلاحين مستجديًا، ويكاد يفقد عقله كلما تلفت حواليه فأبصر ابنه المصدور، مسجى على الأرض أمامه، يسعل سعالًا يفتت الأكباد، ويوشك أن يذهب فريسة المرض، ولا علاج ولا طبيب. فأشفق عليه يابراكسيتيل، بل أشفق على ولده، واذكر أن مينوس خدمنا بإخلاص أكثر من خمس عشرة سنة. إنك ابني الأكبر، وقد أنبتك عني في إدارة ممتلكاتي، ولكني لم أطلب إليك أن تظلم الفقير ولا أن تضع مصلحتنا فوق العدل، ولو أني كنت عالمًا بما أقدمت عليه لاعترضت سبيلك، وحلت بينك وبين البطش بذلك الرجل التاعس البريء، إن أمك لم تنبئني بهذا كله غير اليوم فقط! ولقد كان في عزمي أن أنتظرك ريثما تفرغ من عملك ثم أسرع بالتحدث إليك.. فأنا والدك، صاحب تلك الضياع الواسعة، آمرك بأن ترد الرجل إلى عمله، وتكف منذ اللحظة عن التطلع إلى ابنته".

فنهضت متأبيًا ساخطًا وصحت: "محال! ليزوجني ابنته أولًا، وليعد بعد ذلك إلى عمله! سأقطعه جزءًا من نصيبي في الأرض، واجعل منه بين عشية وضحاها السيد الآمر في جميع مزارعنا".

فأرسل الشيخ ضحكة مدوية وقال: "ولكن كل شيء قد انتهى".

فحملقت في والدي بعينين جاحظتين، وصرخت: "ما معنى كلامك؟ أين؟ أفصح!".

فقال والدي في هدوء: "علمت الآن فقط من صديقي الأديب لينرياس، أن الفلاح سولون قد خطب هيلينا، وأن حفلة العرس ستقام بعد أسبوع في هيكل الإلهة (جونون) إلهة الزواج وقرينة رب الأرباب العظيم جوبيتير".

فغامت الدنيا في بصري، وأحسست كأن يدًا غاشمة تقبض على قلبي وتنتزعه من شغافه. فارتميت على والدي، وأمسكت بذراعيه، وطفقت أهزه هزًا عنيفًا، وأنا أردد:

"لن يقام هذا العرس! سآخذ الفتاة عنوة واقتدار، وسأرى ما إذا كان في وسع والدها أو خطيبها أن يجرؤ على انتزاعها مني".

وهممت بالتحول عنه ومغادرة الملعب، ولكنه أسرع واعترضني، وقطع علي السبيل وصاح:

"إياك أن تمس الرجل بسوء! أنت تعلم أن أثينا بأسرها ستحتفل الليلة بعيد الإله أبولون إله الشعر والفنون، وأن من العار على أي مواطن إغريقي أن يرتكب الشر في يوم مقدس كهذا! أنت تزعم أنك فنان فيجب أن تحترم عيد الإله الذي يوحي إليك الفن والجمال! لا بد أن أراك في معبده هذه الليلة، ولا بد أن تشترك في الصلاة مع الفنانين إخوانك!".

لقد بدأ العيد في مدينة (دلف) منذ أسبوع، والعذارى المختارات اللآتي قدمن القرابين للإله هناك سيصلن الليلة هنا في موكبهن العظيم ليقدمن إلى الإله في معبده قرابين مدينة أثينا، فأحذر أن تلوث هذا اليوم المقدس بما يمكن أن يثير علينا سخط الإله ويجلل اسم أسرتنا بالخزي والعار!

فارتعشت وذهلت. بيد أن عوامل الكمد والحقد تمكنت مني، فأقصيت عني والدي، وتلفعت بمئزري، واندفعت كمعتوه، واتجهت صوب السهل الكبير الممتد خلف الملعب، والذي تتراءى على مقربة منه ضياعنا ومزارعنا، والربوة المقام عليها معبد الإله أبولون، وقطعة الأرض التي جعلت منها مستودعًا للأحجار الصالحة لصنع تماثيلي.

وكان الظلام قد بدأ يخيم على المدينة، وضوء القمر ينبعث من خلال السحب المتكاثفة، خافتًا شاحبًا مضيفًا على السهل الواسع حلة مهيبة ساحرة.

واجتزت السهل وأنا اختلج. وقبل أن أبلغ مزارعي، حانت مني التفاتة فأبصرت على الربوة معبد الإله أبولون، وقد بدأت تترقرق عليه أشعة القمر، فغالبت نفسي ولم أشأ أن أطيل النظر إلى المعبد أو أحيي الإله خشية أن يستفيق ضميري. فمضيت أعدو نحو مزارعي، متحولًا صوب أكواخ الفلاحين، منتقلًا بينها، باحثًا منقبًا عن الكوخ الذي يسكن فيه الفلاح مينوس والد هيلينا.

وفجأة دوت في الظلام صرخات متقطعة مزقت حجب الصمت، فتلفت حوالي مذعورًا، فتبين لي أن الصيحات تنبعث من قطعة الأرض البعيدة التي اتخذتها مستودعًا لأحجار تماثيلي.

فلم أتردد وعدوت نحوها، ولكني لم أكد أشرف عليها حتى سطعت أمامي بغتة أضواء مشاعل أعمت بصري، وحالت بيني وبين رؤية ما يدور على مقربة مني.

وتريثت لحظة، وأنعمت النظر، وسرعان ما رأيت شيئًا خارقًا، شيئًا عجيبًا، شيئًا خفق له قلبي من فرط الفرح خفقًا جارفًا طاغيًا مخبولًا.

رأيت عدوي، رأيت مينوس، مينوس نفسه والد هيلينا. يحمل على منكبه قطعة حجر من أحجاري الرائعة، من أحجاري المصقولة المنسجمة الثمينة التي كنت قد أعددتها لصنع أحد تماثيلي، ورأيت بعض الفلاحين من حراس أرضي وقد أوقدوا مشاعلهم، ممسكين باللص، يحاولون انتزاع الحج منه، ويهم أحدهم بضربة صائحًا متوعدًا.

واتأدت لحظة، ووقفت مثلج الصدر، شامخ الرأس، استمرئ هذا المشهد ثم صحت بالحراس: "ماذا كان يفعل هذا الصعلوك هنا؟".

فأجابني أحدهم: "لقد دأب منذ يومين على سرقة الأحجار، فتربصنا به الليلة وضبطناه وهو متلبس بجريمته".

فتقدمت قليلًا وحدقت إلى مينوس، وقلت ونشوة الحقد تهدر في صوتي، ولذة الثأر والتشفي تومض في عيني: "كنت أهيئ لك الشرك ولكنك نصبته لنفسك! لقد اقتحمت أرضي وسرقتني، وهؤلاء شهود عليك، فيجب أن أسلمك إلى حاكم المدينة".

والتفت إلى الحراس وصرخت: "سيروا به أمامي!".

فأحدقوا بمينوس، وجذبوه من كتفيه، وهموا بأن يسوقوه، ولكن الرجل كان منهوكًا، كان متداعيًا، كان منسحقًا فسقط على الأرض فجأة، ورفت أهدابه. وأوشك أن يغمى عليه، وعيل صبري فركلته بقدمي وصحت: "انهض أيها الوغد الجبان!".

فرفع إلي مينوس بصره الزائغ ثم مد يده المرتعشة وأمسك بطرف ثوبي، وغمغم في شبه أنين:

"تعال، تعال معي إلى بيتي، إلي الكوخ! وبعد ذلك أصبح رهن إشارتك!".

فأدركت أن الرجل يريد أن يودع ابنته وولده، فراق لي أن أصحبه، واستعذبت أن أرى هيلينا، تتخبط بين يدي وتسألني العفو والمغفرة.

فالتفت إلى الحراس وقلت: "امضوا به إلى الكوخ أولًا".

فأنهضوه ودفعوه أمامهم وهو يترنح ويتعثر، وسرنا جميعًا حتى بلغنا هضبة نائية ينهض خلفها كوخ متحدب صغير بني بالصفيح والبوص، وقبل أن نصل إليه، سمعنا صوت هيلينا ثم رأيناها تطل من أعلى الهضبة، وتلوح بذراعيها في ضوء المشاعل وضوء القمر وتصرخ كمجنونة: "المجرم! لن يدخل بيتنا، لن يدخل بيتنا أبدًا".

وفي مثل خطف البرق، انحدرت إلينا وتعلقت بأبيها وطفقت تردد: "لن يدخل! لن يشمت فينا! لن يرى بعينيه ما حل بنا".

فانتهرها مينوس، ونحاها عنه في عنف، وفتح باب الكوخ وقال: "ادخلوا، ادخلوا جميعًا!".

ولم تكد أقدامنا تطأ عتبة الكوخ، حتى تراجعنا مذهولين، وعقد ألسنتنا الرعب.

وتقدمت أنا وتطلعت، فجمد الدم في عروقي. أبصرت الصبي، الصبي الصغير، الصبي المريض، ابن مينوس وشقيق هيلينا الوحيد، ممددًا على فراش من الأسمال البالية، أصفر الوجه، ناتئ التقاطيع، مغمض العينين، ساكنًا هامدًا، قد استغرقته رقدة الموت، واعتصرته يد العدم.

وكان الفلاح سولون خطيب هيلينا واقفًا في زاوية من الكوخ يبكي، فرميته بنظرة ثم تفرست في الصبي، فاقشعر بدني وسرت في كياني كله رعدة لم أستطع أن أكبحها.

وظلت هيلينا شاخصة إلي، مشعثة الشعر، متلمعة العينين، تمج بنظراتها المتقدة بغضًا وحقدًا، وثوبها الأبيض المهلهل المرصع بالزهرات الحمراء الباهتة يكاد من فرط ما علاه من تراب يشبه الأسمال البالية التي رقد عليها الصبي الميت.

وفجأة تقدم مينوس، وارتمى على الأرض بجوار جثة ولده ثم رفع رأسه وقال لي وصوته الأجش يدوي في سكون الليل:

"أنت، أنت الذي قتلت ولدي! أردت أن تثأر مني ففصلتني من العمل، وجردتني من كل ما أملك وفاء لدين كبلتنيبه عامدًا لتذلني، فلم أستطع أن أنفق على علاج ابني العزيز، ولم أستطع أن أغذيه، فمات، مات منذ بضع ساعات فقط. مات بعد أن ظل يحتضر ثلاثة أيام بطولها.

ولما أبصرته يحتضر، وأيقنت أنه لا محالة ميت، عز علي أن يموت ابني الوحيد ثم لا يدفن في ضريح كبقية الأموات، فأردت أن أذهب إلى محجر المزرعة لأقتطع منه بعض أحجار أبني بها ضريحًا لولدي. ولكن حراسك اعترضوني لأنك طردتني، ولأني لم أعد في عداد فلاحيك. وعندئذ جن جنوني فلم أجد بدًا من التسلل تحت جنح الليل، والذهاب إلى مستودع الأحجار الثمينة التي تصنع منها تماثيلك، وهكذا سرقت، سرقت لا لآكل ولا لأطعم الأحياء، بل لأمجد وأكرم الموتى كما أمرنا بذلك الإله أبولون الذي نحتفل الليلة بعيدة المقدس!".

وانفجرت الدموع من عيني الرجل، ولكنه مسحها بكم قميصه واستطرد وهو يحدق إلي:

"والآن أصغِ إلي يا براكسيتيل العظيم، أنا متأهب للذهاب إلى السجن، بل متأهب للموت واللحاق بولدي إذا كان في هذا ما يشفي غليلك ويرضيك. فاجعل من ولدي ومني ضحية لانتقامك، أما ابنتي وخطيبها فارفع يدك عنهما ودعهما يعيشان في سلام. إني ألتمس منك، أتوسل إليك، أعفر رأسي بالتراب وأنحني وأقبل موطئ قدميك".

وجثا الرجل بالفعل وطفق يلثم قدمي، ويبللهما بالدموع. فأثارني ضعفه وذله بدل أن يبعث في نفسي الشفقة عليه.

فنظرت إلي هيلينا في ضوء المشاعل المتوهجة وراعني جمالها الباهر، فلم أتمالك أن صحت:

"حسبك عويلًا! لن تفلت من العقاب. سيلقى بك في السجن، وستكون ابنتك من نصيبي!".

والتفت إلى الحراس وأردفت. "خذوه إلى حاكم المدينة!".

وتحولت نحو سولون خطيب هيلينا، وقلت له في لهجة آمرة: "أما أنت فعليك أن تدفن الجثة في الأرض، وتتلو عليها صلاة الموتى!".

ثم عاجلته بنظرة حادة شعرت أنها اخترقت قلبه كطعنة سكين، وأردفت:

"لن تظفر بهيلينا! لن تكون أقوى مني ولو أن القانون في يدك، سأتحدى القانون وآخذها، سآخذها الآن عنوة واقتدارًا. إن مالي يحميني، ومكانتي تشفع لي، وجاهي العريض أقوى من حكم القانون!".

وانثنيت إلى أحد الحراس وأهبت به: "خذ هذه الفتاة إلى منزلي!".

وإذ ذاك دنا مني سولون، وشخص إلي لحظة، ثم قال في صوت هادئ متزن عميق:

"إني وإن كنت فلاحًا فقيرًا إلا أني لست عبدًا رقيقًا، أنا مثلك مواطن إغريقي حر، وكذلك مينوس! فاسمع الآن أيها السيد: في وسعك بما لك من جاه وسلطان أن تنتزع مني هيلينا، ولكن إقدامك على مثل هذا العمل لا يمكن أن يشرفك أو يشرف اسم أسرتك! فإذا كنت حقًا مواطنًا إغريقيًا حرًا شريفًا، فتقدم! تقدم وصارعني كما تقضي تقاليد بلادنا، وخذها، خذ الفتاة بقوة البسالة والكفاح، لا بقوة المال والحسب!".

فصرخ مينوس في وجه الشاب: "ولكن براكسيتيل سيقتلك!".

فصاح سولون:

"أعلم أنه من أقوى وأمهر المصارعين في أثينا، ولكني أريد أن أغامر بحياتي لأني أحب خطيبتي، ولا أريد أن أجعل منها فريسة رخيصة لمثل هذا السيد، فليأخذها إن أراد ولكن على جثتي!".

ونضا عنه مئزره، ثم مد ذراعيه متأهبًا للصراع. فأبرقت عيناي غبطة وفرحًا، وأخذتني نشوة النصر المكفول. فأسرعت وطرحت عني مئزري، وهممت بالانقضاض على الشاب. وفي تلك اللحظة، اندفع الشيخ، اندفع مينوس بعد أن أفلت من أيدي الحراس وأمسك بي. وقال وهو يواجهني بنظرة يتقد فيها الثبات والعزم:

"لن تقتل هذا الفتى البريء! أنا مثله مواطن حر، وما دمت قد قبلت الصراع، فلن يضيرك أن أصبح أنا خصمًا لك. أية قيمة لحياتي بعد أن فقدت ولدي؟! اقتلني أنا ثم خذ ابنتي، اقتلني بدلًا من هذا الشاب أمت ناعم البال مطمئن الضمير سعيدًا؛ لأني أكون قد أنقذت على الأقل حياة إنسان!".

وارتمى علي، وشدني إلى صدره، فأرسلت هيلينا صيحة مدوية. وصرخ سولون مستهولًا، وعاد فوثب بي. فثار ثائري، وكبر علي أن يتحداني شيخ مهدم ويقف دائمًا حجر عثرة في سبيلي، فدفعت الشاب والفتاة في عنف، وانقضضت على مينوس، أطبقت عليه بجمع بدني، ثم نهضت مسرعًا وطرحته على الأرض، فحاول أن يتملص مني ويعلوني،

فتشبثت بذراعه حانقًا ولويتها، فصرخ الشيخ من فرط الألم، وتأوه تأوهًا ممزقًا ثم انكمش فجأة وتراخى ولم يعد يقاوم. أغمض عينيه، وانطرح خائر الذراعين، هامد الساقين، يائسًا مستسلمًا، وانتظر الموت.

فصاحت هيلينا، وهي ترتمي علي وتطوقني: "أشفق عليه يا براكسيتيل! إنه أبي!".

فلم أعبأ بها، وأغراني ضعف الشيخ بقتله، فانحنيت عليه ورفعته مرة ثانية، وأوشكت أن أضرب به الأرض. وفي تلك اللحظة، في تلك اللحظة فقط، حانت مني التفاته، فأبصرت أمامي. على مقربة مني.. في مهب أنفاسي الحارقة المتشفية، جثة الصبي ممددة على الأسمال، صفراء الوجه، مفغورة الفم، تحدق إلي بعينين مندلعتين ثابتتين هائلتين، فارتعشت بالرغم مني، واضطربت ذراعاي بغتة، وخارت قواي وتركت جسم الأب مينوس يتملص من يدي ويسقط على الأرض.

هالني منظر الجثة وروعني، واشتد بي الهول والذعر وأنا أتمثل الوالد ميتًا بجوار الولد، فتراجعت والعرق يتصبب مني، ونهضت مترنحًا، وأجلت الطرف حولي كمخبول. وكانت هيلينا تنظر إلي بعينين زائغتين يطفر منهما الدمع، وكان سولون –وقد أوجس خيفة من غدري– يتحفز لمواصلة الصراع، وكان الحراس واجمين مذهولين يطأطؤون رؤوسهم كأنهم يحيون السيد العظيم الذي قدر فعفا.

وزحف الأب مينوس إلي وطفق يلثم قدمي وهو يصرخ متضرعًا ويجهش بالبكاء:

"لا! لا تنقذني كي تثأر من خطيب ابنتي! أسرع واقضِ على حياتي أنا، ولكن اعف عنه! إنه بريء، إنه الآن ولدي!".

فتمزق قلبي واختلجت. ولأول مرة، لأول مرة في حياتي خامرني إحساس طارئ عميق عجيب. شعرت على دهش مني أن قسوتي تتحلل، وكبريائي تتبدد، وبطشي يذوب ويضمحل أمام عذاب الآخرين! أنا الذي كنت أعتقد أني إنسان ممتاز، إنسان أعلى، أنا الذي كنت لا أمجد بعد الآلهة غير قوتي، ولا أؤمن بوجود إلا متى كان أثبت وأصلب وأرسخ من وجودي.

أحسست أني وضيع، وأني حقير، وأن قوتي تخدمني أنا وحدي، وتفصلني عن العالم، وتجعل مني وحشًا كاسرًا يلغ في الدم، وهو يعتقد أنه نصف إله! أجل، أحسست وأدركت أن القوة الحقيقية هنا عند الفقراء، القوة الحقيقية في الأب مينوس، وفي الفلاح سولون، في جامعة الألم، في رابطة المحبة، في نعمة الرحمة، في عظمة التضحية.

وذكرت كلمات والدي الشيخ الفيلسوف، فلمعت عيناي ونظرت إلى هيلينا وعزمت. نظرت إليها، وراعني جمالها، فتفطر قلبي وكدت أتردد وأحجم، ولكني استنكرت من نفسي هذا الضعف، وأردت أن أكون قويًا حيثما يجب أن أكون قويًا، فمددت يدي وأمسكت بالفتاة، ثم جذبت خطيبها إلي، ثم طوقت الحبيبين بذراعي، وقلت في صوت ثابت عازم جهير:

"الليلة ليلة عيد الإله أبولون! يجب أن نسرع إلى المعبد، ونحتفل بالعيد نحن أيضًا، كي يبارك الإله العظيم زواجك يا هيلينا بخطيبك سولون!".

فتطلعت إلى الفتاة مأخوذة ولم تصدق سمعها، فلم أحفل بها، والتفت إلى الأب مينوس وأردفت:

"أما أنت فخذ من أحجاري الثمينة ما شئت، وابقَ هنا لتستكمل بناء ضريح ولدك، ثم عد في غد إلى مزرعتي حيث تجد العمل والقوت والمأوى مدى الحياة!".

فجحظت عينا الرجل من فرط الفرح والذهول، ولم يتمالك أن رفع ذراعيه إلى السماء وصرخ من أعماق قلبه: "المجد لك يا أبولون العظيم!".

وخر ساجدًا أمامي، وهم بأن يعود فيقبل قدمي، ولكني زجرته ونحيته، وأهبت بالخطيبين ورجال الحرس: "سيروا بنا إلى المعبد!".

وانطلقنا جميعًا في ضوء المشاعل وضوء القمر، وهيلينا ساهمة شاردة كأنها تسير في حلم، وسولون يتأبط ذراعها ويثب بها على العشب الأخضر، وأنا أنظر خلسة إليها، وأتأمل أضواء القمر والمشاعل وهي تتخطفها، وتلقي على ثوبها الأبيض المهلهل المغبر ظلالًا رائعة من فضة وذهب.

وما كدنا نبلغ السهل الكبير، ونشرف على الربوة المقام عليها معبد الإله، حتى ترامت إلينا صيحات الجماهير تمازجها أناشيد العذارى. فاندفعنا نحو سفح الربوة، واختلطنا بالجماهير، ولبثنا نتخبط في غمرتها وهي تتدفق علينا تارة، وتتراجع عنا أخرى، لتفسح الطريق للموكب المقدس الذي كان يتقدمه المختارون من الكهنة، حاملين تمثال الإله أبولون".

وأقبلت العذارى الطاهرات، وئيدات الخطى، مرتديات غلائل من

الحرير الأبيض، ممنطقات بأحزمة من الحرير الأحمر، متوجات الرؤوس بأكاليل من ورق الزهر، يحملن سلالًا صغيرة ملئت بالورد، وينثرن منها على تمثال الإله، وهن ينشدن في حماسة وحرارة نشيد العيد.

ودخل الموكب المعبد تتبعه الجماهير مرددة نشيد العذارى، فبسطت ذراعي أحمى الخطيبين وأشق لهما الطريق، حتى نفذت بهما إلى ساحة المعبد، وقربتهما جهد المستطاع من هيكل الإله العظيم.

ولما دنونا من الهيكل، جثونا جميعًا على الأرض وطفقنا نصلي، ثم نهضنا لتحية تمثال الإله وتلقي البركة من الكهنة.

وعندئذ ألقت على هيلينا نظرة لم أنعم بها عمري، نظرة تفيض رقة وعذوبة وحنانًا. ثم تقدمت، ومست بأناملها التمثال المقدس، ثم مسحت بها وجهي وغمغمت:

"عشت مشكورًا ومباركًا يا براكسيتيل!".

فانسحق قلبي وكاد الدمع ينفجر من عيني، وأسرعت فالتقطت وردة من الورود التي كانت تنثرها العذارى، وقدمتها إلى هيلينا، وهتفت: "اهنئي بخطيبك، ولتحفظك الآلهة!".

ثم استدرت لفوري، وقد استضاء عقلي واحتواني عزم طارئ خلب لبي وقلبي، واستجمعت قوتي، وغالبت الجماهير حتى أدركت باب المعبد، فمرقت منه كالسهم، ويممت وجهي شطر منزلي.

ولما دخلت البيت، أسرعت توًا إلى حجرة عملي، وأوقدت النور،

واتجهت صوب التمثال الذي كنت قد فرغت من صنعه صباح اليوم، التمثال الضخم، التمثال الغليظ، التمثال الجامد المستكبر، تمثال الإله الجبار هرقل. ثم تناولت مطرقتي، وفي عزم ثابت هادئ، مضيت أضرب بها التمثال وأحطمه!

وما كدت أبصر التمثال الغليظ القاسي قطعًا مبددة، حتى شعرت بدمي يغلي في عروقي، وقوى تصوري وخيالي تتقد وتستعر في فسحة فكري. فلم أتمهل ولم أتردد، وأعددت أدواتي وأحجاري، وشرعت أنحت تمثالًا جديدًا، تمثالًا أصب فيه يقظة بعثي، وتجدد روحي، وعصارة تحولي، تمثالًا لهيلينا في بؤسها ويأسها وتخبطها وعذابها، على شكل طائر مجهد محطم، يختلج من فرط الحيرة والذعر، ويضرب الهواء بأجنحته المنهوكة فرارًا من سهم الصياد.

وخلعت في ذهني على التمثال الجديد اسم (أجنحة الرحمة) فانتشيت وطربت.

وعندئذ، عندئذ فقط، قرت نفسي، وهدأت أعصابي، وأحسست وأنا منهمك في عملي، أني قد تنفست واسترحت.

وكان هذا التمثال هو فجر نبوغي، ولقد صهرته في نار عذابي، فانتزعت به أول اعتراف من والدي الفيلسوف بأني لم أعد صانع تماثيل فحسب، بل أصبحت فنانًا له روح عبقري وقلب إنسان!

الفصل الثاني عشر

عندما يتفوق الإنسان

"وأوشك أن يثأر من الزوجين، ويقبض عنهما يده، ولكن فرح المرأة بالأمومة ألهب في نفسه عاطفة الرحمة وشعور الحب، فأحس وهو مذهول أنه لا يحب المرأة فقط، بل يحب كل ما يصدر عنها، وكل ما يمكن أن ينبثق منها".

الطبيب الروماني فابيوس مرسيلوس

غرام الطبيب الروماني مرسيلوس

ظهر في روما على عهد الإمبراطور يوليانوس المرتد، طبيب عبقري يدعى (فابيوس مرسيلوس)، وكان هذا الطبيب واسع الجاه والثراء. تلقى العلم على يد أساتذة من الإغريق، وأصبح رئيسًا لأكبر مستشفى أنشئ في ذلك العهد في ضاحية جميلة قريبة من روما.

كان مرسيلوس رجلًا في نحو الأربعين، طيب القلب صافي النفس، سريع التصديق، كريمًا بل سخيًا، يغفر لمن أساء إليه، ويصفح عن ألد أعدائه، ولا يعرف قلبه الطاهر عواطف الحسد والغيرة أو رذائل المكر والخبث والحقد والانتقام.

وكانوا يلقبونه بالطبيب الفيلسوف، فكان يبتهج ويفرح ويهز رأسه

مبتسمًا راضيًا ثم ينصرف إلى عمله باذلًا جهده في خدمة مرضاه.

ولم يكن مرسيلوس قد تزوج، فلما التقى بالحسناء (سيبيل) وأحبها، صبا قلبه إلى متعة الدنيا. فاستقال من منصبه في المستشفى، واكتفى بأن يزاول مهنته في بيته، وأن يعيش بقرب سيبيل.

وجاهد جهاد المستميت في سبيل إسعادها، ولكنه لم يفهم أبدًا لماذا لم تحبه هي، وترق لحاله، وتتأثر بعظم التضحيات التي بذلها من أجلها.

والواقع أنها كانت أول امرأة أحبها، فأمعن في الإخلاص لها، وودع العالم وانصرف إليها وحدها، وجعل يغدق عليها من ماله وعطفه وحنانه ما أدهشه، وأشعره حيال نفسه بأنه إنسان أرقى وأسمى وأنبل من الآخرين.

أجل. أحس مرسيلوس الفيلسوف أن هذا الحب ضاعف خلاله الطيبة، وزاده إيثارًا لمصلحة الغير على مصلحته هو، وهذب روحه، وصقل أهواءه وميوله، ورفع مستواه المعنوي في نظر نفسه والناس.

ولكن أية فائدة من كل هذا؟

كان مرسيلوس منكود الحظ، كلما صفا قلبًا واستدق إحساسًا وتطهر من شوائب القسوة والغلظة والختل والنفاق، أحس أن سيبيل تبتعد عنه وتنفر منه، وتتهكم به وتأخذ عليه رقة عواطفه وطيبة قلبه وسذاجة مسلكه في الحياة.

كانت تعتبر الطيبة ضعفًا، والبراءة النفسية غباء، والتجاوز عن الإساءة خنوثة، والإحجام عن مقابلة الشر بالشر دليلًا على نقص في

الرجولة، وانحطاط في قوى الكرامة والكبر.

فمرسيلوس الفيلسوف كان إنسانًا مثاليًا، وسيبيل كانت امرأة عملية، بل كانت أنثى، أنثى بكل ما في هذه الكلمة من معاني الطمع والرغبة في تحدي الحياة، والاستمتاع بها ولو على أنقاض الفضائل التي يؤمن بها السذج الطيبون من الفلاسفة أشباه مرسيلوس.

وكانت سيبيل راقصة شعبية وغانية مشهورة من غواني روما، نشأت في أسرة قروية وضيعة، وتاقت نفسها إلى حياة الترف في المدن. ففرت إلى روما حيث عاونها حسنها الرائع وذكاؤها العملي على تصيد الشبان الموسرين الذين راقهم منها استخفافها بالحياة، وميلها الوقح الجريء إلى العبث بكل فضيلة خلقية وكل عرف اجتماعي.

فلما تعرف إليها مرسيلوس في إحدى الحانات ذات ليلة، راعه منها شعرها المموج الأسود الكثيف، وقامتها اللدنة الممشوقة المديدة، وبشرتها الوردية الفاتنة، وتلك الجرأة الغريبة الشائعة في عينيها الحادتين، فأحبها لساعته وعقد العزم على إنقاذها، إنقاذها من البيئة التي تعيش فيها، ومن المهنة الشائنة التي تمارسها بعد انصرافها من الحانات ودور الرقص.

ولم يجسر على الاقتران بها قبل أن يهذب أخلاقها، ويبدل من سلوكها. فاتخذها صاحبة له، وشرع يبذل قصاراه في تحويل شخصيتها، وتغيير نزعاتها، وتلطيف حدة ميولها وغرائزها، وجعلها أهلًا لأن تكون آخر الأمر زوجة وأمًا.

ورضيت به سيبيل خليلًا؛ لا تأثرًا بحبه، ولا تقديرًا لطيبته وكرم خلاله، بل طمعًا في ثروته الكبيرة، وتطلعًا إلى مكانته الاجتماعية الممتازة، واستغلالًا للروابط الوثيقة التي تربطه بأرفع طبقة من عيون روما ووجهائها.

وكان مرسيلوس الفيلسوف المثالي العاطفة والمنزع، مأخوذًا بفكرته، مسحورًا بغايته، مفتونًا بمثله الأعلى، يأبى عليه حبه العاصف المبرح إلا أن يجعل من سيبيل الغانية سيدة شريفة وامرأة فاضلة كاملة. فكان يغمرها عطفًا وحنانًا، ويرشدها إلى خلالها الفاسدة، ويحاول تطهيرها منها، ويظل الساعات الطوال يحدثها في رفق وعذوبة عن مصير حياة التشرد والبغاء، وعن قيمة الإخلاص في الحب، وقيمة الوفاء لرجل واحد، ولذة الحياة البيتية، ومتعة الأمومة المباركة المقدسة.

وكانت سيبيل تسمعه معجبة ببلاغة عبارته، متأثرة برخامة صوته، ولكنها لفرط ما طبعت عليه من حب الحياة في المجتمعات الصاخبة، كانت تكره من صاحبها هدوءه وإستكانته، وغرامه بالعزلة، وميله إلى الاكتفاء بالحب عن كل شيء، وحبسها وحبس نفسه الأيام الطوال بين أربعة جدران شاهقة كأنها جدران سجن، كانت هي تنشد الحرية، وكان يؤثر نعمة السكون في ظل الهوى.

وهذا التناقض بين أخلاقه وأخلاقها، عكر صفو مرسيلوس، وسامه العذاب ألوانًا، وأشعره أن الحياة التي ينشدها مستحيلة التحقيق مع تلك المرأة.

وأشد ما كان يثير حنقه عليها، أنها كانت مثال الجحود ونكران

الجميل، كانت تغترف من ماله بلا حساب ودونما عبارة شكر أو تقدير. كانت لا تكلف نفسها عناء التحبب إليه إلا عندما تشعر بحاجتها إلى نقوده، وكانت لا تكاد تلتقي بأصدقائها وصديقاتها من العاطلين المترفين والغانيات وأنصاف الحرائر، حتى تسخر بصديقها على مرأى ومسمع منهم، ثم تتناسى وجوده وتقبل عليهم، كأنها لم تعرفه أبدًا، وكأنه لا يمت إليها اليوم بأية صلة.

والغريب أن مرسيلوس كان متأهبًا لاحتمال كل هذا لو أن سيبيل ظلت مخلصة له، ولكنها خانته فجأة، خانته بدون سبب واضح، ودون أن يقع بينهما أي نزاع، خانته هكذا، مدفوعة بسلطان غرائزها وما طبعت عليه من تلون وفجور ورغبة في مخالسة كل جديد. خانته مسوقة بنزوة طارئة وعنيفة في الوقت نفسه. خانته أثناء حفلة راقصة كان قد أقامها ابتهاجًا بعيد ميلادها!

أبصرها قبيل انتهاء الحفلة، تتحدث إليه في سخرية، وتبتسم له ابتسامة مستكبرة كأنها تتحداه، ثم تتخلى عنه وعن مدعويه بغتة، وتنسل إلى حديقة بيته حيث كان ينتظرها رئيس خدمة (هكتور)، ثم توسع رئيس الخدم ضمًا وتقبيلًا، ثم تفر في صحبته، وهي تعلم علم اليقين أن مرسيلوس واقف في الشرفة يرقبها ويشهد موت حلمه بملء عينيه.

ولم يحرك مرسيلوس ساكنًا، لم يقتف أثرها، لم يسرع إليها، لم يرق ماء وجهه في سبيلها.

أغضى عينيه على القذى ثم كتم همه في صدره، واحتمل الخيانة

الدنيئة، وأبت عليه طيبته أن يفكر في الانتقام من سيبيل كما أبت عليه كبرياؤه أن يفكر في استردادها أو الثأر من عشيقها الجديد.

وعاش مرسيلوس يحب سيبيل الخيالية، يحب سيبيل كما أرادها أن تكون، ويحب الصورة المثالية التي تمنى لو استطاع أن يخلعها عليها ويجسمها فيها، وعاشت سيبيل في صحبة الخادم هكتور كما أرادت أن تعيش.

فازت بالرجل الذي كانت تصبو إليه نفسها، والذي كان يمثل في خيالها سحر الرجولة ومعنى الحياة. وكان هكتور على نقيض مرسيلوس، كان شابًا فخورًا بنفسه، مزهوًا بجماله، معتزًا بعضله المفتول، خشن العاطفة، صلب الإرادة، غليظ القلب، لا يخضع لقانون سوى قانون اللذة، ولا يحفل بفضيلة أو يكترث لشرف أو ضمير.

أحبت فيه سيبيل ولعه الجنوني بالمرح، واستجابته الدائمة لنداء غرائزه، وانسياقه في تيارها، ينهب اللذات نهبًا كأنما الموت يوشك أن يحرمه في غد من نعمة الحياة.

أحبت فيه صورة منعكسة منها، وظلًا حيًا لها، بل أحبته لأنه كان شريرًا بقدر ما كرهت مرسيلوس لأنه كان طيبًا ونبيلًا.

وكان هكتور يعذبها فتتشبث به، ويوسعها ضربًا ولكمًا فتقبل يديه وقدميه، ويجردها من نقودها وحليها فتهبه كل شيء عن طيبة خاطر، ولا تشكو منه أبدًا أو تتبرم به.

وكان كلما أسرف في التنكيل بها تضاعف حبها له، وإعجابها

برجولته، وشعورها بأن هذا الرجل القوي الصارم المستبد الغليظ هو الذي يعرف كيف يحبها وهو الذي يستطيع أن يذود عنها ويحميها.

ولكن لكل شيء أجل، تبدد المال الذي كانت سيبيل قد احتالت على مرسيلوس وانتزعته منه، فلما أحس هكتور أنه قد اعتصرها واستنفد كل ما كانت قد أدخرته تنكر لها، وأعرض عنها، ومضى ينخرط في أوساط الغواني عساه أن يعثر على فريسة أخرى ينشب فيها مخالبه.

وكانت سيبيل قد أحبته حبًا ملك عليها قلبها وحواسها، وكانت تعرف أنها ستفقده إلى الأبد إن عجزت عن الإنفاق عليه، ففكرت طويلًا وحزمت أمرها وعولت أن تعود إلى مرسيلوس، ولكنها قبل أن تعود، كاشفت هكتور بخطتها، وصارحته بأنها مجبرة على خيانته، وأنها ستأخذ من مرسيلوس وتعطيه، وأن عليه هو أن يبتعد في الظاهر عنها، ويؤكد أمام الطبيب الفيلسوف أنه قد نبذها، حتى إذا ما اطمأن الطبيب الساذج إليها ووثق في إخلاصها وتوبتها، سهل عليها أن تغرر به وتعود فتتصل بمن تهواه.

وراقت الخطة في عين هكتور، وشرع العاشقان في تنفيذها.

وفي ذات مساء دخلت سيبيل بيت مرسيلوس، متقرحة العينين، شاحبة الخدين، مشعثة الشعر، تبكي وتنتحب وتقول أن هكتور يعذبها، وأنها ندمت على ما بدر منها، وأنها عرفت الآن فقط من هو الرجل الذي حقًا يحبها، وأنها متأهبة لإنكار ذاتها والتضحية بحياتها في سبيل هذا الرجل الطيب النبيل، لو تفضل وتجاوز وصفح عنها.

وكانت تتكلم والصدق يدوي في صوتها، والدموع تترجرج شبه اللآلئ في عينيها، وسحر الألم والأسى يطوقها، ويضفي على وجهها الشاحب البائس هالة رائعة من براءة ونقاء.

وأخذ الفيلسوف بفتنة جمالها، ورق قلبه وهفا إليها، فنسي في لحظة كل شيء، وخيل إليه أن سيبيل قد استحالت بالفعل إلى امرأة أخرى. فدنا منها، وضمها إلى صدره، وهم بأن يلاطفها ويقبلها، وعندئذ سمع في الخارج صوت هكتور وهو ينازع الخادم، ويأبى ألا أن يقتحم البيت ويدخل. فدهش مرسيلوس وناداه، فدخل الشاب محتقن الوجه، زائغ البصر، وما إن لمح سيبيل حتى صاح بها:

"كنت أعرف أنك هنا، كنت أعرف أنك ما زلت تحبين هذا الرجل، فكيف تعتقدين أني أرضى بأن يشاركني فيك إنسان غريب؟ ابقي هنا إذن، لن تدخلي بعد اليوم بيتي، إني أكرهك أكرهك. أتسمعين؟"

والتفت إلى مرسيلوس وأردف وهو ينحني أمامه في احترام بالغ: "سامحني يا سيدي وثق أني ما كنت لأتطلع إلى هذه المرأة أبدًا، لو أني أدركت مبلغ الحب الذي تكنه لك".

وحياه مرة ثانية في احترام، وخرج دون أن يلقي على سيبيل نظرة!

ودهش مرسيلوس، وختم الحب على بصره، واعتقد لفوره أن الرجل صادق والمرأة صادقة، فأقبل على سيبيل ملهوفًا وعانقها عناقًا حارًا، وطفق يغمر خديها وعينيها بالقبلات.

واستبدت به نشوة النصر المخيل والفرح المطمئن الواثق المحموم، ولم تعد تسعه الدنيا، فأخذ يغدق على سيبيل من ماله بلا حساب. وبدأت هي تغترف من هذا المال وتنفق على عشيقها.

وكانت بارعة كل البراعة في ستر تصرفاتها، وحجب عواطفها، وإخفاء ميولها وأهوائها، والجمع بين رجلين في براءة دونها براءة العذارى. فخيل إلى مرسيلوس أنها أصبحت تحبه هو وأنها قد تبدلت وتحولت كما أراد لها أن تكون، فلم يشك لحظة فيها، ولم يخطر على باله أبدًا أنها يمكن أن تخونه وتتصل بهكتور. وعاد يفكر في الزواج منها، وفي تحقيق حلمه المثالي الخيالي العظيم.

بيد أن هكتور الذي كان يمالئها في البدء على هواها، لم يكد يشعر أنها وخليلها قد أصبحا في قبضته حتى أطلق لغرائزه العنان، وارتمى بجمعه في غمرة اللهو والمرح، وهام حبًا بأرملة كهلة ذات سحر ناضج أخاذ، وطفق هو الآخر يبتز المال من سيبيل، وينفقه على غريمتها.

وفطنت سيبيل إلى الخيانة. فثار ثائرها، وجن جنونها. ولكنها بدل أن تسخط على هكتور، انقلبت على مرسيلوس، وتنكرت له، وأحست أنه لم يعد في مقدورها أن تمثل أمامه دور العاشقة، وأن تمنحه ذاتها من أجل حبيب تعلم حق العلم أنه يخدعها.

وتعذب مرسيلوس ولم يفهم. لم يفهم لماذا أعرضت المرأة عنه بعد إقبال، ونفرت منه بعد ود، وكرهته بعد حب. فانطوى على نفسه مرغمًا وبدأ يفكر، بدأ يجاهد ليبدد الغشاوة عن عينيه، بدأ يجاهد ليفصل بين

قلبه وذهنه، وبين حبه وإدراكه، وبين عاطفته وإرادته، ويرى في ضوء عقله المتيقظ الواعي حقيقة نفسه وحقيقة الآخرين.

وشرع يلاحظ سيبيل، ويراقبها ويتبع خطاها، حتى باغتها يومًا وهي تدخل بيت هكتور. فسقط القناع عن عينيه فجأة، وأدرك في لحظة ممزقة أنه كان ألعوبة في يد المرأة ويد عشيقها، وأنها لم تحبه أبدًا، ولم تخلص له فترة، وأن قلبها لم يخفق في الحقيقة إلا لذلك الألإإق العاطل الصعلوك الذي يعيش من كد الغواني!

وراقب هكتور أيضًا، وبث حواليه العيون والأرصاد، فتبين له أنه قد خان سيبيل، وأن هذا هو سر تحولها، وسر انقلابها، وسر شقائها. فاشمأزت نفسه، والتهبت كبرياؤه، وفكر في أن يطرد المرأة ويستريح، ولكنه كان يحبها، كان يعبدها، كان لا يرى في حياته غاية أروع وأمتع من إسعادها. فلم يستطع أن يقتص منها، لم يستطع أن يطعنها، كما أنه لم يستطع أن ينسى عقله الذي هداه إلى مكرها، وجهاده الذي أيقظ عقله وحرره من غدرها. فاضطرب وحار بين جهاد العقل ونداء القلب، ولم يجد له مخرجًا في النهاية إلا من طريق واحد هو الاستمساك بعقله، والحرص على جهاده، والسمو بهذا الجهاد سموًا كاملًا، والتحول به نحو عمل خارق فذ، يتفق وطبيعته، ويتفوق في الوقت نفسه عليها.

وهكذا غلب في صدره عاطفة الطيبة على عاطفة الكبرياء، ونزعة الشهامة على نزعة الانتقام، وروح المثالية على رذيلة حب الذات، وأنعم النظر في الواقع، وامتثل لحكمه، وعزم أن يأخذ بيد سيبيل وينقذها

ويسعدها، ولو على أنقاض حبه المنتهك وغرامه المنبوذ.

واستقدم إليه هكتور ذات ليلة، وقال له على مرأى ومسمع من سيبيل:

"أنت كاذب ومنافق يا هكتور! أنت تخدعني وتخدع هذه المرأة التي تواطأت معك علي، هي تبتز مالي من أجلك، وأنت تنفقه على امرأة أخرى، ولكن ما ينبغي أن تفهمه هو أني لا أكترث للخديعة أو المال قدر ما اهتم بسعادة سيبيل. إنها تسرقني وتعطيك، وإذن فهي تحبك، تحبك أنت وحدك. أنت فقط واأسفاه؛ لذلك يجب أن تقدر حبها وتتزوجها، أتسمع! يجب أن تنبذ غريمتها وتتزوجها! ولو فعلت، فسأبحث لك عن عمل، وسأغدق عليك المال، وسأنقذك من حياة التشرد كما أنقذها هي من حياة الدعارة والفجور، فتزوجها يا هكتور وأسعدها، أسعدها بدلًا مني! أحبها وأخلص لها، واجعل منها امرأة شريفة وزوجة فاضلة، أكن لك شاكرًا وخادمًا مدى الحياة. ولكن اعلم أنك لو قبلت هذا العرض وتزوجتها ثم خدعتها أو خدعتك هي أو دب بينكما أي نزاع، فسأقبض يدي على الفور عنكما، وأردكما في لحظة إلى حياة البؤس والذل والشقاء! فتكلم، تكلم! بل تكلمي أنت يا سيبيل".

والتفت إلى المرأة الذاهلة الواجمة وكان يتوقع منها أن تتأبى وتستنكر، وتعترض ولو في الظاهر فقط؛ رحمة به وشفقة عليه، ولكن حبها كان أقوى منها فصرخت من أعماق قلبها:

– لا أحب إلي من هذا لو قبل هكتور!

وانكبت على يد الطبيب تلثمها وتردد: "أنت ملك، أنت ملك لا إنسان!".

وراق هذا الدور أيضًا لهكتور، فاقترن فعلًا بسيبيل، بعد أن فاز على يد مرسيلوس بوظيفة مدير عام لشؤون قصر من قصور أحد كبار رجال الدولة.

وبدأت التجربة التي كان الطبيب الفيلسوف يعقد عليها أمله، ويلتمس منها راحة لقلبه، وعزاء لنفسه، وتحقيقًا لمثله الأعلى. ولكن التجربة كانت يسيرة على سيبيل؛ لأنها كانت عاشقة، وشاقة على هكتور لأنه كان عابثًا مستهترًا أفاقًا. فما إن انقضى أسبوع واحد على الزواج حتى تجهم هكتور لامرأته، وبرم بحياة البيت، وتاقت نفسه إلى اللهو والمرح. فاعترضه مرسيلوس، وهدده بفصله من عمله ثم قبض يده عنه، ثم استمهله فترة وعاد فبسطها إليه.

فاضطرب الشاب وتخبط، تخبط بين دعوة الطمع ودعوة الدنيا، ثم طأطأ الرأس صاغرًا، ولم يجد بدًا من العودة إلى سيبيل.

ومع ذلك فقد كان لا يعود إلا ليخرج، ولا يهدأ إلا ليثور، ولا يستقر إلا ليتسخط ويتململ ويهم بالفرار. هذا والطبيب يهدده تارة، وينصحه أخرى، ولا يستطيع كي يكبح غرائزه الجامحة وأهواءه المشبوبة، إلا أن يغض الطرف عن تبرمه ويغدق عليه المال بلا حساب.

وشيئًا فشيئًا، وعلى مر الزمن، وبفضل حسن نية سيبيل وثباتها، وما

أشاعه الحب فيها من قدرة خارقة على المسايرة والملاينة والصبر والاحتمال، تبدلت أخلاق هكتور، وزايلته روح الاستهتار والعبث، واتزن وتعقل وهدأ وبدأ يخلص في عمله، ويأنس إلى امرأته، ويألف حياة البيت.

فأشرق محيا سيبيل، وفاضت سعادتها، وتألق حسنها، ومزق هذا الحسن قلب الطبيب الفيلسوف الذي كان يتعهدها، ويرعاها ويرقبها، ويشعر –والحسرة تكاد تخنقه– أنه هو الذي بعثها وأحياها، وهو الذي أبدع سعادتها وجمالها، وهو الذي قدم هذه السعادة وهذا الجمال هدية خالصة لسواه!

وكادت الحسرة تأكله وتميل به نحو الحقد والشر، ولكنه غالب نفسه مرة أخرى وغلبها، وكافأ هكتور على مسلكه بأن ضاعف للزوجين هباته، شاعرًا أبلغ شعور وأوفره أنه قد بدأ يتفوق حقًّا على نفسه، ويحرز نصرًا مبينًا على شهواته وغرائزه.

وفجأة، وبينما يستمرئ لذة جهاده ويحاول أن يكتفي بسعادته المعنوية المجردة، كاشفته سيبيل بأنها حامل، وأنه لو قدر لها أن تضع طفلًا ذكرًا فلا بد أن تسميه باسمه اعترافًا بجميله وإقرارًا بفضله على الوالدين والولد.

وبهت مرسيلوس واشتدت حسرته، ونازعته من جديد عوامل الحقد والشر، وأوشك أن يثأر من الزوجين ويقبض عنهما يده. ولكن فرح المرأة بالأمومة ألهب في نفسه عاطفة الرحمة وشعور الحب. فأحس وهو مذهول أنه لا يحب المرأة فقط، بل يحب كل ما يمكن أن يصدر عنها،

وكل ما يمكن أن ينبثق منها. فأعرب لها عن سروره العظيم، ووعدها بأن يقدم لها يوم الوضع هدية رائعة.

وجاء اليوم المنتظر، ووضعت سيبيل طفلًا ذكرًا أسمته مرسيلوس..

وكانت في سعادتها الغامرة القريرة، جميلة جمالًا يخلب الألباب، تضم طفلها إلى صدرها، وتناغيه وتهدهده، وبصرها الزائغ المبهور يرف تائهًا منتشيًا، ويستقر تارة على الطفل العزيز. وأخرى على الزوج الوفي، ثم على مرسيلوس الذي كان واقفًا بجوار سريرها، مستندًا إلى ذراع هكتور، يحدق إليها تحديقًا طويلًا، ويجاهد كي يتكلم ويبتسم.

ولما برحت به اللوعة، وأحس أنه يكاد يضعف ويفتضح، عزم أن يرحل، فدنا من سيبيل ولثم يدها ثم انحنى وقبل الطفل في جبينه، ثم ارتد بغتة، ودس يده في جيبه، وأخرج كيسًا مملوءًا بالنقود، وقدمه إلى هكتور.

وعندئذ، وفي تلك اللحظة الفاصلة، في تلك اللحظة التي لم تبرح قط ذهن مرسيلوس، تراجع هكتور، وتطلع إليه ثم طوى يديه على صدره، وقال في صوت هادئ ثابت جهير:

"لن أقبل منك مالًا بعد اليوم يا مرسيلوس! الواجب يقتضيني ألا أشكرك بالكلام فقط بل بالذود أيضًا عن كرامتك وكرامتي، لن أمد إليك بعد اليوم يدي. لقد أصبحت والدًا وعلي أن أنهض بأعباء زوجتي وولدي، فرد نقودك إلى جيبك، وسامحني أيها الصديق النبيل، ودعني أقبل يدك!".

وتهلل وجه سيبيل، وأسرع هكتور وغافل مرسيلوس وقبل يده، فارتبك الطبيب وخجل ثم رفع رأسه المترنح الكليل، وألقى على المرأة المعبودة نظرة وداع، واستدار في بطء، وخرج من الحجرة وهو يبكي.

وفي صباح اليوم التالي، افتقد مرسيلوس نفسه فوجدها، فاستجمع قواه، وحزم أمتعته، وعاد إلى المستشفى، حيث قضى بقية حياته في خدمة مرضاه.

الفهرس